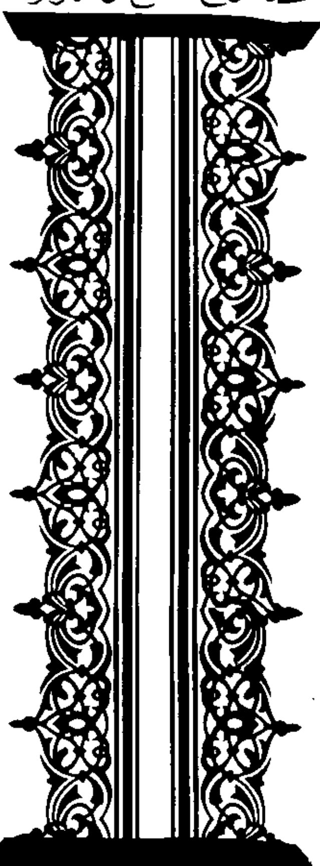


السنة الثانية ١٤٠٢ هـ رمضان (١٨)

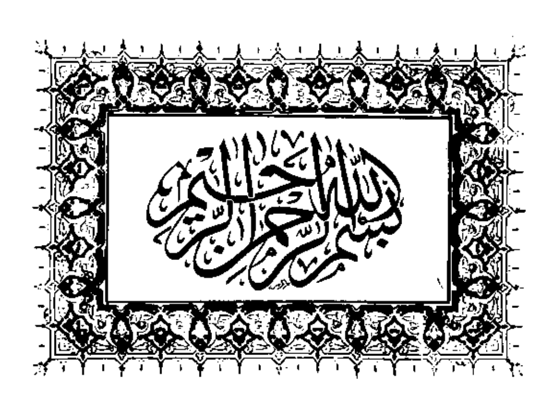
دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي





تأليف

الأستاذ أحمد محمد جمال


بسم الله الرحمن الرحيم

مباحث الكتاب

المقدمة

هذه الفصول الثلاثة هي تعقيبات متأنية ومتعمقة على بعض الكتب القديمة والحديثة التي وضعها علماء قدامى ومعاصرون حول القرآن الكريم : آياته وكلماته ومعانيه ، وقد أسرف بعضهم في القول بنسخ معظم آيات القرآن ، وهذا يعني أن الأحكام والمقاصد الأخلاقية لهذه الآيات قد أبطلت – كما أفرط فريق منهم في توهم الإشكال أو الاضطراب في آيات أخرى من القرآن ، ثم محاولة الرد أو البيان لسلامة التركيب القرآني لفظاً ومعنى .

وقد صدرت قديماً مؤلفات تحمل عناوين : مشكل القرآن – أو غريب القرآن – أو مشكل الحديث النبوي – أو غريب الحديث النبوي . وفي رأينا : أنه لا مشكل ولا غريب ولا متناقض ولا متعارض في آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الحكيم الثابت سنداً ومتناً . .

وإنما الغرابة والاستغراب ، والإشكال والاضطراب ، في عقولنا نحن البشر ، حيث نعجز أحياناً عن فهم آية ، أو وعي حديث نبوي ، أو نتوهم تناقضاً أو اضطراباً في أحدهما .

ولذلك أرى ألا ينسب الإشكال أو الاضطراب إلى القرآن والحديث ، وإنما ينسبان إلى عقولنا وأفهامنا . كما أرى أن توهُّم بعض علمائنا الغابرين والحاضرين لهذا الاضطراب أو الاشكال في آيات القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو افتعال هذه المشكلات والتناقضات – مما يفتح الباب لزلزلة أفكار الشباب ، وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي يفيض بالمباديء الهدامة ، والتيارات الملحدة ، والإيحاءات المفسدة للعقيدة والأخلاق . .

وأخيراً . . أرجو أن أكون قد أديت بعض الواجب في إيضاح حقائق البلاغة القرآنية ، وسلامة كتاب الله حرفاً ولفظاً وجملةً ومعنى من أي إشكال متوهّم ، أو اضطراب مفتعل .
والله هو الموفق والمستعان .

في : ٢٩ رمضان ١٤٠٢هـ **أحمد محمد جمال**

٢٠ يوليو ١٩٨٢م

الفصل الأول

الإسراف في القول بالنسخ

وجدت أثناء مراجعاتي ومطالعاتي لكتب التفسير من أجل تحضير كتابي : (القصص الرمزي في القرآن الكريم)(١) كتيباً لأحد قدماء علمائنا الأفاضل رحمهم الله عن « الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم » للإمام أبي محمد علي بن حزم – رحمه الله – فقرأته فألفيته مختصراً نافعاً في هذا العلم العظيم من علوم القرآن . . والذي لا بد منه لكل قاريء للقرآن يريد التفقه فيه ، وبخاصة ما يتصل بآيات الأحكام .

ولكني لاحظت أن المؤلف رحمه الله أسرف في سحب حكم النسخ على كثير من الآيات القرآنية التي تدعو إلى مكارم الأخلاق في معاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، أو مع المخالفين لهم في عقيدتهم وشريعتهم .

لقد حكم المؤلف رحمه الله بنسخ مئة وأربع عشرة آية في ثمانٍ وأربعين سورة . :

● **الآية الأولى :**

« وقولوا للناس حسنا » (٢)

● **الآية الثانية :**

« ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدوا بغير علم » (٣)

---

١ – صدرت الطبعة الثانية منه سنة ١٣٩٨هـ
٢ – سورة البقرة/٨٣
٣ – سورة الانعام/١٠٨

● **الآية الثالثة :**

« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (١)

هذه الآيات الثلاث حكم عليها المؤلف مع بقية الآيات الأخرى بأن آية السيف قد نسختها جميعاً بمعنى : أبطلت معانيها ، وعطلت ما تضمنته من أمر ونهي كما هو مفهوم (النسخ) المتعارف عليه بين المفسرين ، وكما ذكره المؤلف نفسه في فاتحة كتابه حين قال ما نصه : « المعروف أن النسخ في القرآن الكريم هو إبطال الحكم مع إثبات الخط ، وكذلك هو في السنة » .

وآية السيف التي جعلها المؤلف ناسخةً لكثير من آيات القرآن الكريم هي قوله عز وجل :

« فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » (٢) .

وقد نقل المفسرون أقوالاً لابن عباس رضي الله عنهما : أن هذه الآية لم يبق بعد نزولها لأحد من المشركين عهد ولا ذمة ، وللضحاك بن مزاحم : أنها نسخت كل عقد وكل مدة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ــ وقال ابن كثير :

---

١ ــ سورة الأعراف/١٩٩
٢ ــ سورة التوبة/٥

اختلف المفسرون في آية السيف فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى :

« فإمّا منّاً بعد وإمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها » (١)

وقال قتادة بالعكس .

* * *

ونحن لانختلف مـع المختلفين في القول بأن آية السيف منسوخة أو محكمة .

بل نفترض بقاء آية السيف محكمة . . ولكنا نرى أنهـا لا تتضمن هذا النسخ الشامل لأحكام هذه الآيات العديدة من القرآن الكريم . .

هذه الآيات التي تحمل مقاصد أخلاقية تؤكـدها وتكررها آيات أخرى من القرآن نفسه ، وأحاديث نبوية صحيحة .

ونبدأ في التعقيب على قول المؤلف بأن الآيات الثلاث نسختها آية السيف .. ان قوله عز وجل :

« وقولوا للناس حسنا »

الذي يرى المؤلف أنه آية منسوخة بآية السيف — جاء جزءاً من آية يخبر الله عز وجل فيها نبيه والمسلمين عما أخذه من ميثاق من بني إسرائيل ، وما أمرهم به ، وما نهاهم عنه . وهذه الآية من سورة البقرة يقول الله عز وجل فيها :

---

١ ـ سورة محمد/٤ .

«وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون» .(1)

وهي – وإن كانت وأشباهها – خبَراً عن بني إسرائيل ، وما أمروا به من توحيد الله عز وجل بالعبادة ، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين ، وبأن يقولوا للناس قولاً ليناً ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة – فهي أمر لنا نحن المسلمين ، وتذكير بعاقبة إعراض بني إسرائيل ونقضهم لميثاق الله الذي واثقهم به على التوحيد ، والطاعة ، ومعاملة الناس بالحسنى .

ولذلك نجد جميع المفسرين يحرصون كل الحرص عند تفسير هذا الجزء من الآية : **« وقولوا للناس حسنا »** . .

أن يسلطوا الأضواء على معناه بما يوردون من الأحاديث النبوية التي تؤكده ، وتحث عليه ، وتدعو إليه .

فهذا ابن كثير – مثلا – يقول في تفسيره : « **وقولوا للناس حسناً** » أي كلموهم طيباً ، ولينوا لهم جانباً ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الحسن البصري ، فالحسن من القول : هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحلم ، والعفو ، والصفح . . وكل خلق حسن رضيه الله . .

---

1 – سورة البقرة/83/.

ثم أورد ابن كثير ما رواه الإمام أحمد والإمام مسلم من أحاديث نبوية تأمر بحسن الخلق قولاً وعملاً ، وقال : إن الله أمر هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .(١)

فكيف يقال : إن هذا الأمر القرآني بهذه المكارم الأخلاقية نسخته آية السيف ؟ .

* * *

وكذلك شأن الآية الثانية :

« ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدواً بغير علم » . . (٢)

فهي أدب عظيم من آداب الإسلام إذ ينهى الله عز وجل المسلمين عن سبّ آلهة المشركين الباطلة وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بِسَبّ إلههم الحق تبارك وتعالى .

وقد روت كتب التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية : قالوا لتنتهين يا محمد عن سبِّك آلهتنا أو لنهجونّ ربك – فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم – كما روت أيضاً عن قتادة قوله : كان المسلمون يسبّون أصنام الكفار ،

---

١ – النساء/٣٦/.
٢ – الانعام/١٠٨/.

فيسب الكفار الله عدْواً بغير علم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال الإمام ابن كثير – في تفسيره – : ومن هذا القبيل – وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها – ما جاء في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ملعون من سبّ والديه » قالوا : يا رسول الله ، وكيف يسبّ الرجل والديه ؟ قال : يسبّ أبا الرجل فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمّه فيسب أمّه » .

كما نلاحظ أن فقهاءنا الأفاضل فيما استنبطوا من أحكام أسسوها على قاعدة « سد الذريعة » يستندون أول ما يستندون على هذه الآية :

« ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدواً بغير علم » . .

* فكيف يقال : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف – ومعنى ذلك أنه يجوز أن يسب المسلم معبودات المشركين والوثنيين الباطلة فيسبوا معبودنا الحق تبارك وتعالى : وقد علمنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهانا عن جرِّ السّب لآبائنا وأمهاتنا بسبّنا لآباء الآخرين وأمهاتهم – وجرُّ السب إلى الله عز وجل من المشركين والوثنيين بسبنا لأصنامهم ومعبوداتهم على اختلافها من أحجار وأشجار وأبقار وأولياء وكواكب وغيرها – أعظم إثماً وأكبر جرماً ؟ !

والذات الإلهية ليست المقصودة وحدها بهذا النهي ، فكل

مقدساتنا يجب ألا نجر إليهاسبَّ أعدائنابسبِّنا لمقدساتهم .. مهما كنا على حق ، وكانوا هم على باطل . فيجب ألاَّ نتعرَّض بشتم أو احتقار لمقدسات أمة أخرى ، ولا لكتابها ولا لعقيدتها لئلا نجرها إلى سبِّ واحتقار مقدساتنا ، أو كتابنا ، أو ديننا ! .

* * *

* أما الآية الثالثة :

« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (١)

فيقول المؤلف غفر الله له : إنها من عجيب المنسوخ . . لأن أولها منسوخ ، وأوسطها محكم ، وآخرها منسوخ ، فقوله (خذ العفو) – أي الفضل من أموالهم – منسوخ والأمر بالعرف محكم ، والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية السيف » ! !

ولم يذكر المؤلف ناسخ قوله تعالى : (خذ العفو) ولعله أراد ما نزل بعد ذلك من القرآن من أحكام الزكاة وتسميته مصارفها الثمانية في سورة براءة – وهذا لا يعد في نظرناناسخاً ، وإنما كان الأول مرحلة أولى من التشريع . . ثم جاء البيان والتحديد .

هذا إذا كان (العفو) معناه (الفضل) من المال . . وقد جاء للكلمة معنى آخر وهو العفو الأخلاقي في التعامل مع الناس كما سيأتي . .

---

١ – الأعراف/١٩٩

* قلت : ان كلام (ابن حزم) هو العجيب لأنه مزق الآية تمزيقاً فأبطل أولها ، وأبقى حكم أوسطها ، ثم أبطل آخرها . مع أن الآية كلها محكمة اللفظ ومحكمة المعنى ، ومحكمة المقصد وهي دائبة التوجيه للمسلمين عامة إلى مكارم الأخلاق .

وإذا رجعنا إلى كتب التفسير وجدنا أقوالاً لبعض الصحابة والتابعين في تفسير معنى الآية تدل على أنها محكمة ، وأن ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم لا يزال قائماً حتى بالنسبة لأمته من بعده .

والمعنى الجامع لما تعددت فيه وجهات نظرهم : أن الله عز وجل أوصى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يأخذ العفو من أموال الناس ، ومن أخلاقهم ، أي ما تيسر منهم إنفاقاً وأخلاقا ،

ونقل ابن كثير عن – صحيح البخاري – قول عبدالله بن الزبير خذ العفو أي من أخلاق الناس – ثم قال : ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة : أنه لما نزلت الآية قال رسول الله ما هذا يا جبريل ؟ . . قال : إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » .

* * *

كما نقل ابن كثير عن الإمام البخاري ما رواه عن ابن عباس أن عيينة بن حصن قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : يا ابن الخطاب إنك لا تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل – فغضب عمر لمقالته وهم أن يوقع به ، فقال الحرّ ابن قيس يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين »

وان هذا – يعني عيينة – من الجاهلين ، فو الله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وقد كان وقافاً عند كتاب الله عز وجل » .

وتحدث ابن جرير الطبري . . عن معنى الآية فقال : ان العرف بمعنى المعروف . . وأن الله قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل في ذلك جميع الطاعات ، كما أمره بالاعراض عن الجاهلين ، وذلك وإن كان أمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم : فانه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم .

واستثنى ابن جرير هنا أن يكون الاعراض عمن جهل الحق الواجب ، والصفح عمن كفر بالله وهو حربٌ للمسلمين – فهذان لا يعرض عنهما ولا يصفح عنهما .

وكما أسلفنا تورد كتب التفسير عند شرح هذه الآية وأشباهها – مما يرى المؤلف أنها منسوخة بآية السيف – آيات أخرى مشابهة لها في الدعوة إلى مكارم الأخلاق كقوله عز وجل :

« إدفع بالتي هي أحسن السيئة . . . » (١)

وقوله تبارك وتعالى :

« ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن » (٢)

وقوله :

« وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن .. ان الشيطان ينزغ بينهم »(٣) . .

---

١ – المؤمنون/٩٦/٠ ٢ – فصلت/٣٤/٠ ٣ – الاسراء/٥٣/٠

فهذه الآيات وأمثالها في القرآن – كما يرى ابن كثير – يرشد الله فيها إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف ، بالتي هي أحسن ، فإنّ ذلك يكفنه عما فيه من التمرد والعصيان .

وعلى ذلك نرى أن دعوى النسخ لهذه الآيات وأمثالها مما يدعو فيه القرآن إلى مكارم الأخلاق – لا برهان عليه من عقلٍ ولا نقل .

* * *

ونمضي مع المؤلف في عجائبه وغرائبه من إبطاله لكثير من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، التي تضمنتها آيات قرآنية محكمة ، وقوله : أن آية السيف هي الناسخة لها !

● **أولا** – قوله عز وجل في سورة (المؤمنون) :

« إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون »(١) .

وهي آية محكمة أرشد الله بها نبيه – كما يقول ابن كثير في تفسيره – إلى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه لتتحول عداوته إلى صداقة وبغضاؤه إلى محبة .. وهي شبيهةٌ بآية فصلت :

« ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم »(٢) .

● **ثانيا** – قوله تبارك وتعالى في سورة الفرقان في وصف عباد الرحمن : **« وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (٣)**

---

١ – المؤمنون/٩٦/٠   ٢ – فصلت/٣٤/٠   ٣ – الفرقان / ٦٣ / ٠

قال المؤلف : إنها منسوخة في حق الكفار وبعضها محكم في حق المؤمنين !

أي أن الجاهل الكافر إذا شتم أو جادل هؤلاء العباد الصالحين الذين نسبهم الله إليه فسمّاهم (عباد الرحمن) فإنهم يضربونه بالسيف ! أمّا الجاهل المؤمن فيردون عليه بالصمت والسلام !

وهو كلام لا يليق بالأدب العظيم الذي يؤدب به القرآن المسلمين حين يقدم لهم هذا الدرس الأخلاقي في صورة أوصاف نعتهم بها فاستحقوا معها أن يضافوا إلي الرحمن إضافة تشريف فيقال : « وعباد الرحمن » والمعروف أن الرحمن من عظيم صفات الله تعالى الذي يحلم ويعفو ، ويمهل الظالمين والعصاة ، رحمة بهم ، لعلهم يتوبون إليه .

ومن صفات هؤلاء العباد : الحلم والصفح والإعراض عن الجاهلين وقد أشارت آيات عباد الرحمن إلى هذه المعاني في قوله تعالى عن هؤلاء العباد :

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

وقوله تعالى : « **وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما** » .

وهو أدب يجب على المسلم أن يتخلق به حين يسفه عليه مؤمن أو كافر ، قريب أو بعيد ، كبير أو صغير ، وقد كرر القرآن الحث عليه والحض إليه في مثل قوله عز وجل :

« **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين** » (١) .

---

١ ـ القصص/٥٥٠/

وينقل الإمام ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد: أن رجلا سبّ رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم . . فجعل المسبوب يقول للساب: عليك السلام – فقال صلى الله عليه وسلم: (أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك – وكلما قلت له عليك السلام .. قال الملك لا بل أنت عليك السلام ، وأنت أحق به » .

● **ثالثا** – قوله تبارك وتعالى من سورة المؤمن أو غافر :

« فاصبر إن وعد الله حق ، واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار »(١) ..

وقوله أيضاً من السورة نفسها :

« فاصبر إن وعد الله حق . . فإما نرينّك بعض الذي نعدهم ، أو نتوفينك فإلينا يرجعون »(٢)

زعم أنهما منسوختان بآية السيف .

والمتأمل في الآيتين يجد أن الله عز وجل يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر والاستغفار والتسبيح ، والانتظار للكفار بالانتقام الإلهي العاجل في حياتهم ، أو الآجل يوم يرجعون إلى الله . وكلتا الآيتين تقول بعد الأمر بالصبر :

« إن وعد الله حق »

أي لا تستعجل يا محمد ولا تيأس ، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك من نصر على العدو – وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده وجنده يوم بدر وما تبعه من فتوح وغزوات مباركات ، انتصر فيها الإسلام وانهزم الشرك – وهذه هي سنة الله في رسله وفي الأمم التي يرسلون إليها . وإنما النصر مع الصبر ، كما حدثنا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

١ – المؤمن أو غافر (٥٥) . ٢ – المؤمن أو غافر (٧٧) .

وإذا كان الرسول والمؤمنون معه قد امتثلوا أمر الله ، فصبروا على ما أوذوا وكُذّبوا حتّى أتاهم النصر المبين — فليس معنى ذلك أن الأمر الأوّل بالصبر . . قد نسخه الأمر بالقتال نهائياً ومطلقاً ، بل لا بد من الصبر في كل معركة تالية ، ولا بد من الصبر في سبيل الدعوة وإقناع الناس بها ، واحتمال عنادهم وخصامهم . وقد تكرر هذا الأمر بالصبر في القرآن للرسول عليه الصلاة والسلام كثيراً ، من ذلك قوله تبارك وتعالى :

« واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم » (١) .

* * *

ويمضي المؤلف — غفر الله له — في القول بالنسخ لآيات أخرى في سورة الأنفال منها قوله عز وجل :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »(٢) . .

فقد حكم بأنها منسوخة بالآية التي تليها :

« وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون »(٣) .

● قلت : ان هذه الآية محكمة، وهي تصور حقيقة إلهية ثابتة بالعقل والنقل ، وهي عدالة الله ورحمته ، ووعده الذي لا يخلف بالتوبة على المستغفرين ، كما تصور واقعاً من تاريخ دعوة محمد في مكة المكرمة ، وقبل الهجرة إلى المدينة

---

١ ـ النحل/١٢٧/٠ ٢ ـ الانفال/٣٣/٠ ٣ ـ الانفال/٣٤/٠

المنورة . وقد نقل المفسرون عن ابن عباس – ترجمان القرآن الكريم – أنه قال : كان فيهم أمانان ، النبي صلى الله عليه وسلم والاستغفار ، فذهب النبي وبقي الاستغفار » .

وفي رواية أخرى عنه قال : ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم . وإذا تذكرنا تاريخ الأنبياء السابقين وسير أقوامهم وجدنا ما قاله ابن عباس حقاً وصدقا . . فنوح عليه السلام أُخرج على السفينة التي صنعها ومن آمن معه قبل أن يُرسل الطوفان على قومه – ولوط عليه السلام أُخرج وأهله – – إلا امرأته – قبل أن يخسف الله الأرض بقومه ، وهود وصالح وموسى عليهم السلام أنجاهم الله وأخرجهم من بين أظهر أقوامهم قبل أن يعذبهم بإرسال حاصب ، أو أخذ صيحةٍ ، أو إغراقاً .

وفي رواية ثالثة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : ان الله سبحانه وتعالى جعل في هذه الأمة أمانيْن لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم ، فأمان قبضه الله إليه ، وأمان بقي فيكم – يعني الاستغفار ، ونقل عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مثل ذلك .

وفي حديث للإمام الترمذي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنزل الله عليَّ أمانيْن لأمتي) :

« **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** »،فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

وهذا الحديث وما سبقه من قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري يدل بوضوح على أن الآية محكمة ماضية بمعناها في المسلمين أيضاً ، وليست خاصة بالمشركين في مكة قبل الهجرة أو قبل الفتح .

أما كونها محكمة بالنسبة للمشركين فيثبت ذلك تاريخ دعوة محمد – كما أسلفنا – ويوضحه ما ذكره الامام ابن كثير في تفسيره : من أن الله عز وجل لم يوقع بهم العذاب ، وهم أهل له ، لبركة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . . حتى إذا خرج من بين أظهرهم مهاجراً إلى المدينة أوقع الله بهم بأسه يوم بدر ، فقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم .

وإذن فالأمان الأول كان قائماً فعلا . . سواء على رأي ابن عباس من جريان سنة الله تبارك وتعالى في عدم تعذيبه للأمم الفاسقة والكافرة وأنبياؤهم بين أظهرهم ، أو على رأي ابن كثير عن بركة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم .

أما الأمان الثاني – وهو الاستغفار – فقد كان قائماً بالنسبة للمشركين – لأنه دعوة من الله لهم إلى التوبة من الشرك ، والدخول في الإسلام أو هو – على رأي ابن جرير – استغفار المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا إلى الهجرة مع الرسول سبيلا ، فدفع العذاب عنهم بسبب هؤلاء المؤمنين .

ويحتج ابن جرير لذلك بآية الفتح التي نزلت يوم الحديبية :

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما » (١) .

وإذا ما تأملنا — فوق ذلك — ما جاء في القرآن الكريم من حث الله عز وجل للعصاة والمذنبين على الاستغفار من أجل رفع البلاء عنهم . . رأينا أن القول بنسخ الآية لا حجة عليه من عقل ولا نقل .

وحسبنا من ذلك قول الله على لسان صالح عليه السلام لقومه :

« لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » (٢)

وقوله عز وجل :

« فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم »(٣) .

وحسبنا كذلك الحديث النبوي الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم ما معناه : (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم بضالته) — ونذكر أيضاً الآية القرآنية :

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » (٤)

والآية الأخرى :

---

١ — الفتح/٢٥/٠

٢ — سورة النمل/٤٦/٠

٣ — سورة الانعام/٤٣/٠

٤ — سورة النساء/١٤٧ ٠

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا(١) » .

* * *

ومع ذلك يمضي ابن حزم – في كتابه (الناسخ والمنسوخ في القرآن) فيرى أن قوله عز وجل :

« قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » (٢)

منسوخ بالآية :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . . . »(٣)

وان قوله تعالى :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . . » (٤)

منسوخ بالآية :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . »(٥)

وان قوله سبحانه :

« وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإنّ ربك لشديد العقاب » (٦)'

---

١ – الزمر/٥٣/٠

٢ – سورة الانفال/٣٨

٣ – البقرة/١٩٣/ ، والانفال/٣٩/٠

٤ – سورة الانفال/٦١

٥ – التوبة/٢٩/٠

٦ – الرعد/٦

منسوخ بالآية :

« إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به . . . » . (١)

* وليس بين الآيات التي يرى المؤلف أنها منسوخة والآيات التي يرى أنها ناسخة لها تعارض أو تضاد حتى يقال إن هناك ناسخاً ومنسوخاً .

فقوله تبارك وتعالى :

« قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف . »

قائم دائم إلى يوم القيامة . . لكل من كفر به من خلقه على مر الأجيال والعصور : إن ينتهوا من الكفران إلى الإيمان . وسيغفر لهم ما أسلفوا من معصية أو عدوان ، وهو وعد من الله عز وجل ولن يخلف الله وعده بالمغفرة والتوبة على كل من تاب عن كفرانه أو عصيانه .

وإذا رجعنا إلى أقوال المفسرين حول هذه الآية وجدناهم يفسرونها بأن الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« **قل للذين كفروا إن ينتهوا** » من كفرهم وعنادهم ويدخلوا في الإسلام والطاعة . . يغفر لهم ما قد سلف من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم .

ويروي الإمام ابن كثير تأكيداً لهذا المعنى الدائم القائم في هذه الآية : الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما

---

١ ـ النساء/٤٨/١١٦/.

عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر)
والحديث الصحيح الآخر : (الإسلام يجبُّ ما قبله ، والتوبة
تجب ما كان قبلها)

* * *

أما الآية التالية التي رأى المؤلف أنها ناسخة للسابقة وهي
قوله عز وجل :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . . . »

فهي تعني قتالهم في حالة عدم انتهائهم عن كفرهم وعنادهم
– فالحكمان قائمان – لا ناسخ بينهما ولا منسوخ ، الأول في
حالة توبتهم ، والثاني في حالة إصرارهم على الكفر .

والقول بنسخ الثانية للأولى يعني أن يقاتل الرسول والمؤمنون
الكافرين حتى مع توبتهم وإسلامهم : والرسول صلى الله عليه
وسلم يقول في الحديث الصحيح : (أُمرت أن أقاتل الناس حتى
يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن شهدوا عصموا
مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) .

ثم إن هذه الآية :

« إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف »

لها نظائر وأشباه في القرآن الكريم كقوله عز وجل :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم »(١)

وفي الآية الأخرى :

---

١ – التوبة/٥/٠

« . . فإخوانكم في الدين » (١)

وفي الثالثة :

« فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (٢) .

وفي الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأسامة بن زيد حين علا رجلاً بالسيف فقال : لا إله إلا الله ، فضربه فقتله ـ كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءك بها يوم القيامة ؟ قال أسامة : إنما قالها تعوذاً . قال : (أشققت عن قلبه) ـ وكرّر الرسول قوله : من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة (حتّى قال أسامة تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ) .

* * *

أما بياننا للحكم في قوله عز وجل :

« وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها » (٣)

فهو كبياننا لحكم الآية السابقة ، أنها لا شك محكمة وماضية إلى يوم القيامة . . وهي مبدأ عسكري إسلامي رفيع ومنيع ، ينبغي تطبيقه مع كل عدو محارب للمسلمين إذا جنح إلى المهادنة والمسالمة والكف عن عدائه وإيذائه لجماعة المسلمين أو كان المسلمون أقل منه عدداً وأضعف جنداً ، فلا بدّ من مسالمته ومصالحته في الحالتين بعد تيقن صدق نيته واتخاذ الحيطة ضد خداعه(٤) .

---

١ ـ التوبة/١١ .   ٢ ـ البقرة/١٩٣ .   ٣ ـ الانفال/٦١ .

٤ ـ في كتابنا (الجهاد في الاسلام : مراتبه ومطالبه) تفصيل لهذه المسألة .

وقد أجاب صلى الله عليه وسلم قريشاً إلى ما طلبته من صلح يوم الحديبية ، مع ما اشترطت عليه من شروط بدت قاسية يومئذ حتّى قال عمر رضي الله عنه « علام نرضى الدنية في ديننا يا رسول الله ؟ » .

وللإمام ابن كثير – في تفسيره لهذه الآية – رد على من قال بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف – فقد قال رحمه الله : إن قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »

فيه الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، أما إذا كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية :

« وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها »

ولا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم . (١) .

* * *

* أما قول ابن حزم أن قوله عز وجل :

« وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . . . »

منسوخ بقوله :

« إنّ الله لا يغفر أنْ يشرك به ويغفر ما دون ذلك »

فهو أعجب مما سبقه وأغرب . لأن القول بنسخه نفي لسنة

١ – تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٢٣

من سنن الله ثابتة له وقد كررها القرآن في مواقف أخرى مشابهة لهذا الموقف ، وهو استعجال الناس كفاراً ومؤمنين للعذاب أو للسيئة تحدياً للأنبياء أو ضيقاً بمتاعب الدنيا ومصائبها . .

الموقف هنا : أن المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم يستعجلونه بالسيئة قبل الحسنة أي بالعقوبة — وقد تكرر هذا الاستعجال في آيات أخرى كقوله عز وجل :

« ويستعجلونك بالعذاب » (١)

وقوله :

« وقالوا ربّنا عجِّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب »(٢)

وقوله أيضاً :

« وإذْ قالوا اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فأمطرعلينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . . » .. الآية(٣) ..

والرد الإلهي دائماً على هؤلاء الكفار من قوم نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم — وعلى أسلافهم من الأقوام الغابرين — ردٌ واحد . . هو أن موعد عذاب الكفار لا يتقدم ولا يتأخر ، وأن الله ذو مغفرة للناس ، وأنه ذو رحمة واسعة ، ولكنه مع هذا الامهال والانتظار شديد العقاب ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، وأنه سبحانه لو استجاب لكل أمة كافرة دعاءها باستعجال العذاب ، أو لو أنه تبارك وتعالى يؤاخذ المذنبين بذنوبهم فوراً ما ترك أحداً من الناس على وجه الأرض ، فكلهم

١ ـ الحج/٤٧/٠ ٢ ـ ص/١٦/٠ ٣ ـ الانفال/٣٢/٠

بين كافر ومذنب : والمتقون قليل ـ والدليل على ذلك ما نقرؤه في الآيات التاليات :

- « فإن كذّبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين »(١) .
- « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٢) .
- « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »(٣) .
- « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم » (٤) .

وإذن فالقول بأن هذه الآية :

« وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ». (٥)

(منسوخة) هو نفي لصفةمن صفات الله الثابتة ، ونفي لسنة من سنن الله تعالى الماضية في من يكفر به أو يعصيه . . وهي الإنظار والإمهال ، فقد يؤمن الكافر ، ويتوب العاصي ، أما إذا أصر هذا على عصيانه ، واستمر ذلك على كفرانه ، فإن أخذه أليم شديد ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

* * *

---

١ ـ الانعام/١٤٧/.
٢ ـ الحج/٤٧/.
٣ ـ فاطر/٤٥/.
٤ ـ يونس/١١/.
٥ ـ الرعد/٦/.

ومن عجائب مذهب المؤلف ـ رحمه الله ـ في قوله بنسخ آيات كثيرة من القرآن الكريم حديثه عن هذه الآية :

« إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

فقد قال : انها منسوخة بقوله عز وجل :

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »(٢)

والمتأمل في هذه الآية لفظاً ومعنىً لا يجد منفذاً أو سبيلا للفهم أو الزعم بأن هناك أي تعارض أو تناقض بينها وبين الآية الأخرى . .

وليس معنى قوله تبارك وتعالى :

« إنَّ الله لا يغفر أنْ يُشْرك به . . »(٣)

ان الله لا يقبل توبة المشرك في الدنيا إذا أسلم وحسن إسلامه ، ولكن معناه أن الله لا يغفر للمشركين شركهم إذا ماتوا عليه ـ والقرآن والحديث النبوي يفيضان بقبول الله عز وجل لتوبة التائبين من شركهم أو من عصيانهم وهم أحياء ـ وقد أسلفنا بعضاً منها في ما تقدم من تعقيب . .

إنما تذكر الآية : ان الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، واليهود الذين آمنوا بموسى عليه السلام في زمانه والنصارى الذين

---

١ ـ البقرة/٦٢

٢ ـ آل عمران/٨٥/٠

٣ ـ النساء/٤٨/٠

آمنوا بعيسى عليه السلام في زمانه مع إيمانهم جميعاً بالله واليوم الآخر ، وسلوكهم طريق العمل الصالح — هؤلاء جميعاً لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

انها بشرى من الله عز وجل للمؤمنين في كل عهد ، مع كل نبي ، للمؤمنين بالله واليوم الآخر وبأنبيائهم الذين أرسلوا إليهم — بأن الله لا يضيع إيمانهم ولهم جزاؤهم على ما قدموا من أعمال صالحات . .

وقد نقل الإمام ابن كثير عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال : قال سلمان الفارسي رضي الله عنه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت :

« **إنّ الذين آمنــوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله وباليوم الآخر** . . . » إلى آخرها .

ثم عقب ابن كثير على ذلك بقوله : وهذا لا يتنافى مع قوله تعالى :

« **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** »

فمعناه أن الله لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه بما بعثه به .

أما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى

وسبيل ونجاة ، فاليهود هم أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم فلما بعث عيسى عليه السلام وجب عليهم اتباعه ، والانقياد إليه ، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى — فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين ورسولا إلى بني آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

أما الصابئون فهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين لهم) .

* * *

ومفهوم كلام ابن كثير أن كلا من اليهود والنصارى الذين اتبعوا موسى وعيسى عليهما السلام في عهديهما ، وعملوا صالحاً ، وآمنوا بالله واليوم الآخر — وكذلك — الصابئون لهم أجرهم عند ربهم ، لأنهم ماتوا على إيمانهم بالله ورسله ولم يدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم . أما الذين أدركوه منهم فقد وجب عليهم الإيمان به ، وبشريعة الإسلام واتباعها ، ولن يقبل منهم غيرها .

● قلت : فالآية إذن محكمة ، ولا تعارض بينها وبين آية :

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »

فهذه للمستقبل ، وتلك إخبار عن الماضي — والقول بأن الثانية ناسخة للأولى غير مسلّم به .

ومن الغريب جداً : أن المؤلف في مقدمته عن معنى (النسخ) وقوله : إنه يقع في الأمر والنهي ، ولا يقع في الخبر — قال : إن البعض سمى (الاستثناء) و (التخصيص) نسخاً ولكن الفقهاء على خلاف ذلك .

وهذا يعني أن جمهور الفقهاء لا يعدون الاستثناء والتخصيص نسخاً — ومع ذلك فهو يرى النسخ بالاستثناء تارةً ويتركه أخرى .

ولا ريب أن الحق مع جمهور الفقهاء لأن الاستثناء والتخصيص إبقاء للحكم وإخراج جزء منه . أما النسخ فهو إبطال للحكم كله .. فكيف يعد الاستثناء أو التخصيص نسخاً ؟ .

وهذه بعض الأمثلة :

يقول المؤلف : ان قوله عز وجل :

« إنَّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»(١)

منسوخ بالآية التالية :

« إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم »(٢)

أي أنه اعتبر الاستثناء هنا ناسخاً ، والنسخ — كما أسلفنا وكما هو مفهومه الاصطلاحي عند المفسرين والفقهاء — معناه إبطال الحكم .

---

١ — البقرة/١٥٩/٠

٢ — البقرة/١٦٠/٠

وحكم الآية الأولى ثابت ، فالله عز وجل ينذر به كل من يكتم شيئاً مما جاء به الرسل والأنبياء من دلالاتٍ على المقــاصد الإلهية ــ بلعنة الله وملائكته والناس أجمعين .

ويقول ابن كثير ــ في تفسيره ــ ان هذه الآية نزلت في أهل الكتاب لأنهم كتموا صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

* قلت : وكتموا أشياء أخرى من الأحكام أيضاً كحكم الزنا . والآية في نظرنا عامة في كل من يكتم حقاً أو علماً مما أنزل الله على الأنبياء جميعاً . وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة : (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجامٍ من نار) .

إذن فحكم الآية ماض في كل من كتم علماً يعلمه مما أنزل الله في كل كتاب سواء أكان التوراة أم الإنجيل أم القرآن .

أما الآية التالية :

« إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا . . . »

فهي استثناء والاستثناء لم يكن في قواعد اللغة العربية ومصطلحاتها مبطلاً للمستثنى منه . وإنما يبقى كل منهما على حكمه : أي الرضا عمن بيّنَ ، واللعنة على من كتم .

* * *

وكذلك سحب المؤلف حكم النسخ على المستثنى منه في هذه الآية :

« ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جُناح عليهما فيما افتدت به . . » (١)

فقال ان الاستثناء في قوله :

« إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله »

ناسخ لما قبله :

وهو رأي واضح البطلان ، فتحريم أخذ الرجال – أي الأزواج – من مهور زوجاتهم ما زال قائماً . . وما أحل أخذه منها هو من أجل مخالعة الزوجة لزوجها إذا كرهت معاشرته فلا بد من إرجاع شيء مما أعطاها من صداق أو إرجاع الصداق كله . . كما فعلت امرأة ثابت بن قيس إذ جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تقول له : ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام . . فقال صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم : قال رسول الله لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة (٢) .

وقوله تعالى :

« ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً .. »

---

١ – البقرة/٢٢٩

٢ – رواه البخارى – واجاز بعض الفقهاء أن تزيد المرأة على الصداق اذا طلب الزوج ذلك في مقابل فكاكها منه ·

كقوله عز وجل :

« ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » (١)

معناهما وحكمهما واحد : هو ألا يضايق الرجال أزواجهن ويضاجروهن ليفتدين أنفسهن بردّ ما أعطوهن من أصـــدقة أو بعضها .

* * *

ومضى المؤلف يسحب حكم النسخ بالاستثناء في آيات أخرى منها قوله عز وجل :

« إنَّ المنافقين في الدَّرك الأسفل من النار . . . »(٢)

قال : انه منسوخ بالاستثناء في قوله عز وجل :

« إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله . . » (٣)

وقوله تعالى :

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » (٤)

قال : انه منسوخ بالاستثناء بعده :

« . . فإن قاتلوكم فاقتلوهم »

وآيات أخرى مشابهة لها . .

---

١ ـ النساء/١٩/٠
٢ ـ النساء/١٤٥/٠
٣ ـ النساء/١٤٦/٠
٤ ـ البقرة/١٩١/٠

ومن الغريب أنه لم يقل بالنسخ في آيتين مماثلتين وهي قوله تعالى :

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . . . »(١)

وقوله تعالى :

«ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»(٢)

فقد قال : انهما محكمتان ومعنى ذلك أنه يعد الاستثناء نسخاً تارة ولا يعده نسخاً تارة أخرى .

* * *

ويرى ابن حزم أن آية السيف وهي قوله تبارك وتعالى :

« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم »(٣)

قد نسخت الآيات الثلاث التالية :

- **« فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » (٤) .**
- **« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير»(٥)**
- **« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . . » (٦)**

ونرى أن هذه الآيات المحكمات قد تضمنت مباديء ومقاصد سياسية وعسكرية وأخلاقية ثابتة ودائمة إلى يوم القيامة .

---

١ ــ البقرة/٢٢١/٠

٢ ــ التين/٥ ، ٦/٠

٣ ــ التوبة/٥/٠

٤ ــ سورة البقرة/١٩٢

٥ ــ سورة البقرة/٢١٧

٦ ــ سورة المائدة/٢

يقول الله عز وجل :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »(١) .

هذه الآيات البينات تشتمل ــ كما أسلفنا ــ على مباديء ومقاصد سياسية وعسكرية وأخلاقية في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين في زمانهم ، ولأعداء الإسلام في كل زمان .

● **أولا** : على المسلمين أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ، ويقول ابن كثير هنا : ان هذا تهييج للمسلمين واغراء لهم بالأعداء الذين همتهم قتال أهل الإسلام ، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم . ونظيره قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . . » (٢)

وبهذا قال في هذه الآية :

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم »(٣)

أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما أن همتهم منبعثة على قتالكم ، وعلى إخراجهم من ديارهم كما أخرجوكم من

١ ــ البقرة/١٩٠ ــ ١٩٣/٠
٢ ــ التوبة/٣٦/٠
٣ ــ البقرة/١٩١/٠

دياركم قصاصاً .

● **ثانياً** : يأمر الله في ختام الآية نفسها ألا يتجاوز المسلمون في قتالهم للأعداء نطاق عدوانهم على المسلمين ، وألا يتعدوا حدود هذا العدوان من قتال ، ولا يرتكبوا المساويء العسكرية من المثلة والغلول ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ الذين لا يشتركون مع الأعداء في قتالهم . وكذلك ممنوع على المسلمين قتال الرهبان وأصحاب الصوامع المتفرغين للعبادة بعيداً عن ميدان المعركة ، وهم منهيون أيضاً عن تحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة .

ويؤيد هذه المقاصد الأخلاقية في قتال المسلمين لأعدائهم ما رواه الإمامان مسلم وأحمد من توجيهات نبوية كانت تصدر من القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى جيوشه حين يعقد ألويتها ، ويبعثها للقتال في سبيل الله ، لا في سبيل مغنم أو مأثم(١).

● **ثالثا** : لما كان القتال فيه ازهاق للنفوس وسفك للـــدماء وترميل للنساء ، وتيتيم للأطفال . . نبه تبارك وتعالى إلى أن حال المشركين من كفر بالله وشرك به ، وصد عن سبيله لكل من أراد الدخول في الإسلام ، وإخراج أهل مكة وجيرة المسجد الحرام منها ــ كل ذلك أعظم إثماً ، وأبلغ جرماً من (القتل) انها (الفتنة) التي يحاول المشركون بها منع الناس أن يهتدوا بهدي الله ،

---

١ ــ يراجع كتابنا (الجهاد في الاسلام) فصل العسكرية الاسلامية.

فهي إذن أشد من القتل ، وأبشع وأفظع ! !

● **رابعاً** : مع أن الفتنة أشد من القتل فإن حرمة المسجد الحرام مازالت قائمة . . ولكن ماذا يفعل المسلمون إذا بدأهم المشركون بالقتال فيه ؟ هنا تؤكد الآية أولا : حرمة المسجد الحرام ، وحرمة القتال فيه – ثم تأذن للمسلمين أن يقاتلوا المشركين عند المسجد الحرام إذا بدأوهم بالقتال فيه . .

وأكد هذا المقصد الكريم الحديث النبوي الذي رواه الشيخان (ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . ولم يحل إلا ساعة من نهار ، وانها ساعتي هذه – حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . . لا يعضد شجره ، ولا يختلى خلاه فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا ان الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم) يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتال يوم فتح مكة .

● **خامسا** : يقول الله عز وجل للمسلمين وللمشركين معاً :

« **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** » وفي الآية الأخيرة : « **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** » .

ونقول : انه خطاب للمشركين أيضاً لأن في الآية الأولى إغراءً ووعداً للمشركين بأنهم إذا انتهوا عن كفرهم ، وتابوا

وأنابوا ، وأسلموا مع رسوله الصادق الأمين وجوههم لله عز وجل – فإن الله سيغفر لهم كل ما ارتكبوه من سفك للدماء . وإخراجٍ للأبرياء من ديارهم ، واغتصابٍ لأموالهم .

● **سادساً** : – أما الآية الأخيرة: « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » . .

فهي تأكيد للمقاصد السابقة من قتال المشركين ، وملاحظة عدم الاعتداء وتجاوز الحدود الأخلاقية ، وعدم القتال عند المسجد الحرام ابتداء وإنما مقابلة بالمثل – وملاحظة انتهــاء المشركين عن كفرانهم وعدوانهم ، وقد نبه تعالى مرة ثانية إلى ملاحظة هذا (الانتهاء) في ختام هذه الآية :

« **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** »

بعد أن قال في المرة الأولى : « **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** » .

* * *

وهنا – في ختام تعقيبنا على المؤلف فيما قاله من وجود ناسخ ومنسوخ في هذه الآيات – نقول : أين الناسخ وأين المنسوخ ؟ وكل هذه الآيات الكريمات ترسم مباديء ومقاصد سامية لمعاملة المشركين وكل أعداء الإسلام سياسياً وعسكرياً وأخلاقياً على مر الأجيال والعصور .

أما قوله بأن الآية :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . »

منسوخة بآية السيف أيضاً ـ فالرد عليه في ذلك شبيه بما رددنا به في الآيات السابقة ، لأن الموضوع واحد ،والموقف واحد ، هو موقف المسلمين من المشركين عسكرياً .

فهذه الآية أشبه ما تكون بالخبر ، أو هي استفتاء وفتوى ، بل انها حديث عن حادثة فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش في سرية إلى بطن نخلة بطريق الطائف ، فقتلت السرية عمرو بن الحضرمي . . ووجدت قريش فرصة لها لتعيب على محمد صلى الله عليه وسلم أن تقتل سريته رجلاً منها في شهر حرام هو رجب . فقالت : يزعم محمد أنه يتبع طاعة الله ، وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب ! وقد كانت السرية تحسب أنها قتلت ابن الحضرمي في جمادى الآخرة.

وجاء الرد على قريش قرآناً يتلى على مرّ العصور والدهور بأن القتال في الشهر الحرام كبير ، أي كبير الإثم . ولكن ماصنعتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام . حين كفرتم بالله ، وصددتم عن محمد صلى الله عليه وسلم من يريد اتباعه والإسلام لله معه ، وحين أخرجتم أهل المسجد الحرام منه :

« قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهلهِ منه أكبرُ عند الله والفتنة أكبر من القتل . . » (١).

---

١ ـ البقرة/٢١٧/٠

وفي هذه الآية تكرير تأكيد لما سبق في الآيات الأولى من أن : « **الفتنة أشد من القتل** »

وهي ردٌّ على المشركين حين يعيبون على المسلمين قتالهم في الشهر الحرام ، أو عند المسجد الحرام ، فموقف المشركين من الإسلام ورسوله وأتباعه : من صدٍ وكيدٍ وإخراجٍ وتعذيبٍ أعظم من القتل والقتال .

● فكيف يقال : إن هـذه الآية التي هي أشبه بالاستفتاء والفتوى أو هي حديث عن حادثة ، أو خبر عن واقعة — منسوخة بآية السيف ؟ أي أن ما جاء فيها من بيان لموقف المشركين من المسلمين ووصفٍ لهذا الموقف اللئيم الذميم بأنه أكبر إثماً من قتل رجلٍ في شهرٍ حرام — قد أبطل حكمه ومعناه !

* * *

وكذلك ما قاله في الآية الثانية من سورة المائدة من أنهـا منسوخة بآية السيف — وهي قوله تبارك وتعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدْي ولا القلائد ولا آمِّين البيت الحـرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** » .

● هل يجوز لقاريء لهذه الآية متدبراً ما تضمنتهمن شعائر

دينية ، ومكارم أخلاقية ـ أن يقول بإبطال معانيها ومقاصدها : من عدم إحلال محارم الله ، والقتال في الشهر الحرام ابتداء ، وتقديم الهديْ وتقليده ليعرف فلا يعتدى عليه ـ وعدم التصدي بالقتال للقاصدين إلى البيت الحرام الذي من دخله كان آمناً ـ وإباحة الاصطياد لمن حل من إحرامه ـ ووجوب العدل مع الأعداء ـ والإنذار بأن الله شديد العقاب لمن خالف أوامره وزواجره ؟ !

وحتّى القول : بأن المقصود بالنسخ خاص بقاصدي المسجد الحرام . . لمجيء الأمر بقتال المشركين حيث وجدوا ـ غير سليم . . فالآية قد عيّنت هؤلاء القاصدين للمسجد الحرام بأنهم :

« **يبتغون فضلاً من ربّهم ورضواناً** » . .

والمشركون لا يبتغون من الله فضلاً ولا رضواناً ـ وإذا أرخينا العنان وقلنا : انهم يبتغون فضلا بالتجارة فإن ابتغاءهم لرضوان الله غير مسلّم بهِ وهم مشركون به ، صادُّون عن دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

● ولو أرخينا العنان مرةً أخرى فقلنا : إن المشركين يحتمل أن يبتغوا فضلاً من الله ورضوانا ، فإن آية السيف لا تعد ناسخة لهذه الآية أو جزء منها ، وإنما تعد مخصصة لحكم هذا الجزء منها بغير المشركين . . فترعى حرمتهم وتحفظ ذمتهم ، وتصان أنفسهم ودماؤهم وأموالهم .

* * *

ويقول المؤلف : في سورة الأنبياء نسخ منها آيتان أولاهما قوله تعالى :

«إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون»(١)

والأخرى هي التي بعدها :

« لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون »(٢)

نسختا كلتاهما بقوله تعالى :

« إنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون »(٣)

* وهو — لا شك — قول باطل . . فالآيتان المتتابعتان تتحدثان عن مصير المشركين بالله غيره من أصنام على اختلاف أنواعها من أشجار وأحجار وأبقار وغيرها . وتقرران : أن هذا المصير المحتوم هو جهنم ، وأنهم سيكونون وآلهتهم المزعومة الموهومة وقوداً لها — وطعاماً وأنهم في هذا المصير الأليم خالدون. !

وفي صدر الآية الثانية تقريعٌ للعابدين لغير الله وتوبيخ : فإن هذه المعبودات الباطلة العاجزة لو كانت أرباباً صحيحة ذات قدرة على الخلْق والتدبير ما وردت النار كما وردها العابدون المشركون . ولكن هؤلاء العابدين ومعبوداتهم أيضاً واردون في جهنم وخالدون فيها .

وهو أشبه بقوله عز وجل — في سورة الحج — :

---

١ ـ الانبياء/٩٨/٠
٢ ـ الانبياء/٩٩/٠
٣ ـ الانبياء/١٠١/٠

« يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تعبدون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » . . (١)

وحتى هذه الآلهة لو كانت من البشر فهي واردة جهنم مع عابديها إذا كانت راضيةً بهذه العبادة الباطلة كفرعون والنمروذ مثلا .

فالآيتان محكمتان لا يبطلهما عقل ولا نقل . . تماماً كالآية التي جاءت بعدهما والتي حكم المؤلف بأنها نسختهما ، وهي قوله تبارك وتعالى :

« إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون »

فكما ذكرت الآيتان مصير المشركين بالله وآلهتهم الباطلة من بشر وشجر وحجر ، جاءت هذه الآية بعدهما لتذكر مصير المؤمنين الموحدين لله عز وجل الذين لا يشركون به شيئاً . .

- فأولئك المشركون ومعبوداتهم مأواهم النار . .
- وهؤلاء الموحدون لله المخلصون في عبادته لهم الجنة . .

وقد جاء الحديث عن الفريقين في مقطع واحد متصل الآيات للتمييز والتفريق بين السعداء والأشقياء ، بين فريق الجنة وفريق السعير . وقد تكرر الحديث عنهما في سور أخرى بالأسلوب نفسه ، للغاية ذاتها .

ويجوز أن تكون هذه الآية قد نزلت (للاستثناء) من حكم

---

١ - الحج/٧٣/٠

الآيتين السابقتين لها . . كما يروي ابن كثير في تفسيره – عن ابن اسحاق في سيرته – ان الرسول صلى الله عليه وسلم جلس في المسجد الحرام يوماً . . ومعه نفر من قريش منهم الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث . . ودار بينه وبينهم كلام حول الشرك والمشركين وتلا عليهم صلى الله عليه وسلم قوله تبارك وتعالى :

« إنّكم وما تعبدون من دون الله حصَب جهنم أنتم لها واردون»

ثم نهض الرسول من المجلس وجاء عبد الله بن الزبعرى ، فأخبروه بأن محمداً زعم لهم أنهم وما يعبدون من آلهة حصب جهنم – فقال ابن الزبعري : أما والله لو كنت حاضراً لخصمته . . سلوا محمداً أكل ما يعبدون من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عُزيْراً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ؟ ! فعجب الوليد ومن معه في المجلس من قول ابن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج لهم ، وخاصم عنهم .

وأسرعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليذكروا له ما قاله ابن الزبعرى ، وما ظنوه حجة لهم على الله ورسوله وكتابه فإذا بالرسول يرد عليهم بقوله : (كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده) . وأيده الله تبارك وتعالى فأنزل هذه الآية :

« إنَّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون »

أي أن من يعبد من دون الله وهو غير راضٍ بذلك من

نبي ٍ أو ولي ٍ أو ملك ٍ مستثنى من حكم الآيتين السابقتين .

وقد سجل القرآن قصة هذا الحوار بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين ابن الزبعرى والوليد بن المغيرة ورهطهما من المشركين في قوله عز وجل – من سورة الزخرف – :

« ولما ضُرب ابنُ مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل» .(١)

* * *

وزعم المؤلف غفر الله له : أن قوله عز وجل – في سورة الحج – :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم »(٢)

قد نسختها آية :

« سنقرئك فلا تنسى »(٣)

ولم نجد في كتب التفسير ما يشير إلى هذا النسخ المزعوم وإنما وجدنا مع الأسف الشديد – أن المفسرين القدامى استناداً على كتب الأقاصيص والأساطير قد وقعوا في خطأ أعظم من خطأ القول بنسخها . وذلك أن هذه الآية – كما زعموا – وما بعدها

---

١ – الزخرف/٥٧ – ٥٩/٠
٢ – الحج/٥٢/٠
٣ – الاعلى/٦/٠

تحكي قصة (الغرانيق) التي لا يقرها عقل راشد ، ولم يثبتها نقل صحيح – والقول بها ينافي الإيمان بعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا فهل يعقل أن يتلو الرسول قول الله عز وجل من سورة (النجم) :

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى »

فيجامل المشركين ويضيف من عنده (تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى) فيرضى المشركون عنه ويسجدون معه عند انتهائه من تلاوة آخر السورة :

« فاسجدوا لله واعبدوا » ؟ .

ثم ينزل الله بعد ذلك هذه الآية :

« وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يُلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته » . . (١)

تبرئةً للرسول وتعزيةً له بأن ذلك إنما كان من الشيطان وأن هذا شأن الأنبياء والرسل جميعاً . ؟ !

هكذا زعم معظم المفسرين وكتاب السيرة النبوية . . وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وبرأ أنبياؤه ورسله من هذه الأماني الباطلات !

وقد رد كثير من المفسرين المحدثين على المفسرين القدامى

---

١ – سورة الحج آية ٥٢ .

بتصحيح فهمهم الخاطيء لمعنى هذه الآية . . بما خلاصته : أن معنى قوله تبارك وتعالى :

« إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته »

أي أن كل رسول وكل نبي يتمنى أن يؤمن قومه برسالته ، وأن ينجح في تبليغ دعوته لينقذ أمته من الهلاك الذي ينتظرهم إذا أصروا على شركهم وكفرهم . . ولكن لا بد من أن يلقي الشيطان في طريقه الصعاب والعقبات بما يوحي إلى بعض قومه أو معظمهم من عناد وجدال وإصرار على الكفر وإيذاء الرسول أو النبي في نفسه وأهله والمؤمنين به ، وهذا هو شأن الأنبياء والرسل جميعاً . ثم يحقق الله لهم النصر والتأييد . ويبطل وساوس الشيطان ويحبط مكائد أتباعه من المشركين .

وتكون (تمنَّى) على حقيقتها المعروفة بمعنى الرجاء والأمل لا بمعنى التلاوة والقراءة . وهو مجازٌ أو معنى مهجور نـــادر الاستعمال .

أما أن الآية منسوخة ـ كما زعم المؤلف ـ فغير صحيح إذ هي محكمة ومعناها قائم وثابت لأنه سنة الله عز وجل في رسله وأنبيائه كما أسلفنا بيان ذلك . ثم هي (خبر) عن هذه السنة الإلهية وقوله تبارك وتعالى :

« سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله » الآية . .(١)

إنما هو وعد منه للرسول صلى الله عليه وسلم بحفظ ما يوحيه

---

١ ـ سورة الأعلى ٦ ، ٧ .

إليه إلا ما أراد الله نسخه كما جاء في سورة البقرة :

« ما ننسخ من آية أو نُنْسها نأت بخير منها أو مثلها »(١)

وهي كذلك طمأنينة للرسول ، وقد كان يخشى نسيان بعض ما يلقيه إليه جبريل من الوحي . . كما طمأنه عز وجل في سورة القيامة :

« لا تحرِّكْ به لسانك لتعجل به . إنَّ علينا جمعه وقرآنه »(٢).

●●●

ويقول المؤلف : ان قول الله عز وجل — في سوره الحج — :

« الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون »(٣)

منسوخة بآية السيف .

وقد أسلفنا تعقيباتنا على إسراف المؤلف في القول بأن آية السيف نسخت آيات كثيرة من القرآن .

أما تعقيبنا هنا على أن آية السيف ناسخة أيضاً لهذه الآية فنبدأه بذكر الآيات السابقة لها ليتضح مفهومها الصحيح ، يقول الله عز وجل :

« لكل أمةٍ جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ». (٤)

---

١ ـ البقرة /١٠٦/ .
٢ ـ القيامة /١٦ ، ١٧/ .
٣ ـ الحج/٦٩/ .
٤ ـ الحج/٦٧ ـ ٦٩/ .

والمعنى : أن الله تبارك وتعالى جعل لكل أمة موضعاً أو منهجاً لعبادتها ترتاده وتتعود عليه . ولذلك سميت مواضع الحج وأعماله (مناسك) فلا تهتم يا محمد بمنازعة من يخالفك أو يجادلك . .

وهو شبيه بقوله عز وجل :

« لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا » (١)

أو بقوله :

« كذلك زينا لكل أمةٍ عملهم » . . الآية (٢)

فهم يرون أن منسكهم أو عملهم أو عبادتهم أو شرعتهم هي الحق والصواب . .

ثم يقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في ختام هذا المقطع :

« الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » . .(٣)

أي أثبت على منسكك ومنهجك وشرعتك ودينك ، ودع المخالفين على منسكهم ومنهجهم وشرعتهم ودينهم ، وسيحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون .

فأين علاقة آية السيف بهذه الآية التي تقرر حقيقة إلهية كونية ثابتة قررها وكررها لتأكيد القرآن في كثير من آياته ؟ . وهي أن الله عز وجل جعل من يوم القيامة المحكمة الكبرى للفصل بين الناس .

---

١ - المائدة/٤٨

٢ - الأنعام/١٠٨/ .

٣ - الحج/٦٩/ .

بين الأنبياء وأممهم ، وبين الحكام وشعوبهم ، وبين المتخاصمين من البشر أفراداً وجماعات ؟ !

وما الذي ينسخ هذا المعنى المحكم الخالد الثابت . . الذي هو حق الله ، وفضل منه لإنصاف المظلومين ، وهو كذلك حقيقة إلهية كونية – حقيقة يوم القيامة ووظيفته ومهمته . .

وقد سحب المؤلف حكم النسخ على آيات مماثلة كقوله تعالى في سورة الزمر :

« إنَّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون »(١)

وقوله :

« أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » (٢)

وغيرهما – وهي آيات محكمات – لا يمكن أن يتطرق إليها النسخ بحال من الأحوال .

●●●

ويرى ابن حزم أن قوله تعالى في سورة الشورى عن الملائكة :

« يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض »(٣)..

منسوخة في الآية التي في سورة المؤمن :

« يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » . .(٤)

ونراه قد أخطأ وهنا أيضاً ، فليست الآية الثانيةناسخة للأولى ، وإنما هي مفسرة لها مخصصة لعمومها في مسألة استغفار الملائكة ..

١ – الزمر/٣/ .
٢ – الزمر/٤٦/ .
٣ – الشورى/٥/ .
٤ – غافر/٧/ .

ان الآية الثانية فسرت « من في الأرض » بالمؤمنين أو الذين آمنوا . وكثير من آيات القرآن الكريم فيما يتعلق بالأحكام والأخبار على سواء – تسري عليه هذه القاعدة : التخصيص بعد التعميم ، أو تفصيل المجمل – أو ما يقوله المفسرون عادةً : إن القرآن يفسر بعضه بعضاً .

ونضرب لذلك مثلا من القرآن نفسه ، وهو قول الله تبارك وتعالى في سورة غافر :

« قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ». .(١)

فهذه الآية مجملة وتفصيلها أو تفسيرها في قوله عز وجل في سورة البقرة :

«كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (٢)

فقد أوضحت آية البقرة الميتتيْن والحياتيْن في سورة غافر .

أما النسخ فيعني – كما أسلفنا – الإبطال ، ولا يصح القول بإبطال الآية الثانية للآية الأولى جملة واحدة .

وعند مراجعة كتب التفسير لا نجد مفسراً زعم أن آية الشورى منسوخة بآية المؤمن ، وإنما عدها مفسرةً لها وقال في معنى :

« ويستغفرون لمن في الأرض »

---

١ – غافر : المؤمن/١١/ .
٢ – البقرة/٢٨/ .

انهم أهل الإيمان ، أو المؤمنين .

* * *

ثم يرى ابن حزم أن قوله عز وجل من سورة الشورى أيضاً :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها . . وماله في الآخرة من نصيب »(١)

منسوخة بقوله تبارك وتعالى :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » (٢)

وليس هنا ناسخ ولا منسوخ . . وإنما جاءت الآية الثانية تأكيداً للأولى مع زيادة في المطلوب ممن يريد الآخرة . . وذلك في قوله عز وجل :

« وسعى لها سعيها وهو مؤمن »(٣)

وزيادة بالثناء عليه في قوله :

« فأولئك كان سعيهم مشكورا » .(٤)

ويمكننا أن نقول أيضاً أن الآية الأولى مقيدة بالثانية لأنها اشترطت الإيمان على من أراد الآخرة فقالت « وهو مؤمن » تماماً كما جاءت آية المؤمن في استغفار الملائكة : « للذين آمنوا » بينما كانت آية الشورى خلواً من هذا التخصيص أو التقييد .

* * *

وفي سورة الشورى نفسها يرى المؤلف أن قوله عز وجل :

---

١ ـ الشورى/٢٠/ .
٢ ـ الاسراء/١٨/ .
٣ ـ الاسراء/١٩/ .
٤ ـ الاسراء/١٩/ .

« والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون »(١)

وقوله :

« ولمنَ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل »(٢)

قد نسخهما قوله تبارك وتعالى من السورة نفسها :

«ولمنَ صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . (٣)

مع أن الانتصار للنفس من ظالمها ما زال مشروعاً ومقبولا ، وهو من حق كل مظلوم . . ولنا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الفضلاء كثير من الأمثلة والأدلة على ذلك . . فقد أعلن عليه الصلاة والسلام قبل وفاته للناس جميعاً : (من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليستقد منه . . ألا وأن الشحناء ليست من خلقي) أو كما قال صلى الله عليه وسلم .(٤)

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يجلد ظهراً لأحد ، ولا شتم عرضاً ، ولا أخذ مالا ولكنه يقرر مبدأ تشريعياً وأخلاقياً لكل مظلوم ، ومهضوم في نفسه أو ماله أو عرضه .

وقد جعل الله عز وجل من أوصاف المؤمنين في سورة الشورى أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، وأنهم (استجابوا لربهم) بطاعة أوامره واجتناب زواجره ، (وأقاموا الصلاة) وأن أمرهم شورى بينهم ومما

---

١ ـ الشورى/٣٩/ .
٢ ـ الشورى/٤١/ .
٣ ـ الشورى/٤٣/ .
٤ ـ الاستقادة من (القود) وهو القصاص .

رزقهم ينفقون ويتصدقون ، ومن تمام أوصافهم الإيمانية أنهم إذا أصابهم البغي أو الظلم استطاعوا أن ينتقموا من ظالمهم وليسوا بضعفاء عن أخذ حقوقهم . . ولا جبناء في رفع الظلم عنهم .

ولا ننسى هنا الحديث النبوي الصحيح : (المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير) (١) .

فمن واجب المؤمن أن يكون قوياً قادراً على رفع الظلم عن نفسه وعرضه وماله ، ومن حقه أن يستوفي القصاص لكل مظلمة له عند ظالمه .

ولذلك نجد القرآن – في المقطع نفسه – يقول :

« وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها » (٢)

ويقول في سورة البقرة :

« ولكم في القصاص حياة » (٣)

ويؤكد ذلك في قوله أيضاً :

« والجروح قصاص » (٤)

●●●

وبعد إعطاء الحق للمظلوم في نفسه أو ماله أو عرضه أن يقتص من ظالمه – يدعو القرآن إلى العفو والصفح إن أمكن ذلك المظلوم وقدر عليه ، فقد يكون هناك أصحاب حق في دم أو مال لا قدرة لهم نفسياً أو مالياً على العفو عن دية قتيلهم أو ارش جريحهم ، أو انتهاك أعراضهم .

---

١ – رواه مسلم .
٢ – الشورى/٤٠ .
٣ – البقرة/١٧٩ .
٤ – المائدة/٤٥ .

إن العفو في الشريعة الإسلامية فضل . . من استطاعه فعله مأجوراً مشكوراً ، ومع ذلك فالحق في القصاص مالياً وجسدياً وعرضياً مشروع لكل مظلوم ومهضوم .

وإذا كنا نقرأ في كتاب الله عز وجل قوله :

« والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له »

وقوله :

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله »(١)

وقوله :

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »

فنحن نقرأ أيضاً في الكتاب العزيز نفسه قول الله تبارك وتعالى :

- **« وجزاء سيئة سيئة مثلها » .**
- **« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » .**
- **« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»(٢)**

ولذلك — وتقريراً لحق المظلوم . . أو المعتدى عليه أن ينتصف من ظالمه — ركّز القرآن في المقطع نفسه من سورة الشورى — بعد أن قال عن الذين ينتصرون لأنفسهم وأعراضهم وأموالهم :

« فأولئك ما عليهم من سبيل »(٣)

ركّز على جعل المسئولية والحق والمؤاخذة على الظالمين والمعتدين فقال في الآية التالية لها :

---

١ — الشورى/٤٠/ .
٢ — البقرة/١٩٤/ .
٣ — الشورى/٤١/ .

« إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » . (١)

وإذن فلا ناسخ ولا منسوخ في هذه الآيات المحكمات التي تقرر أولاً للمظلوم حقه في الانتصار لنفسه وماله وعرضه ، وتدعوه ثانياً إلى العفو والصفح إذا كان قادراً عليه مالياً ونفسياً — وتركز ثالثاً على مؤاخذة الظالمين والمعتدين والبغاة في الأرض بغير الحق ، وتنذرهم بعذاب أليم .

●●●

وينتقل المؤلف إلى سورة الأحقاف ، فيرى أن قوله عزوجل :

« قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبّع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين »(٢)

قد نسخه صدر سورة الفتح :

« إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر »(٣) .

وقد أشرنا — فيما سبق — إلى أن المؤلف مع تسليمه بأن النسخ لا يسري على الاخبار ، وإنما هو خاص بالأحكام . . إلا أنه قال بنسخ كثير من الأخبار التي تضمنتها آيات كثيرة وهو هنا يكرّر هذا الخطأ الكبير .

فآية الأحقاف هذه إنما هي خبر عن الرسول صلى الله عليه

---

١ ـ الشورى/٤٢/ .
٢ ـ الأحقاف/٩/ .
٣ ـ الفتح/١ ، ٢/ .

وسلم بأنه ليس بدعاً من الرسل السابقين ، بل هو مثلهم فيما أرسل به من الله عز وجل من الدعوة إلى توحيده ، وإفـــراده بالعبادة ، واتباع ما يشرعه لهم من أحكام وأخلاق . .

وأنه كذلك لا يعلم الغيب . . فهو لا يدري ما سوف يفعل الله به أو بهم هل يستجيبون لدعوته ؟ أم يرفضونها ؟ وهل يبقى فيهم حتى تنتصر دعوته وينتشر دينه ؟ أم يؤمن به القليل ويكفر به الأكثرون . . كمن سبقه من الأنبياء الذين آمن ببعضهم الرجل والرجلان والثلاثة ، وقتل بعضهم ، وعذبت أقوامهم بالخسف أو الغرق أو الصيحة !

وأنه صلى الله عليه وسلم إنما هو متّبع لما يوحيه إليه ربه عز وجل من أمر أو نهي ، وليس مبتدعاً من عنده لما يدعوهم إليه من عقيدة وشريعة صادرتيْن من عند الله تبارك وتعالى . . ولذلك فهو ينذرهم غضب الله وعذابه إن لم يستجيبوا له ويتبعوه .

فماذا في هذه السمات أو الأخبار عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن مهمته كنبي يحمل رسالة ربه إلى الناس — ماذا فيها مما يقبل النسخ أي الإبطال والإلغاء؟ وقد تكررت في القرآن كثيراً لبيان وظيفته ، وتأكيد مثليته للأنبياء قبله في الدعوة إلى الله عقيدة وشريعة ؟ .

أما أن آية الفتح هي الناسخة لآية الأحقاف . . فهذا هو الشيء العجاب ، لأنها نزلت تبشر الرسول صلى الله عليه وسلم

بعد صلح الحديبية في مرجعه إلى المدينة بفتح مكة أو ببركات صلح الحديبية كما هو رأي بعض الصحابة رضي الله عنهم أمثال ابن مسعود وجابر بن عبد الله والبراء وغيرهم إذ كانوا يقولون لإخوانهم : انكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

وإذا كان المؤلف يقصد بالناسخ قوله عز وجل :

« ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر »

والمنسوخ قوله :

« وما أدري ما يفعل بي ولا بكم »

فآية الفتح لا تعد ناسخة لآية الأحقاف وإنما هي مطمئنة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومبشِّرة له بالمغفرة فقد جاء في الصحيحين : أنه لما نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم سورة الفتح قال صلى الله عليه وسلم : نزلت عليّ الليلة آية هي أحب إليّ مما على الأرض – فهنّأه الصحابة بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقالوا : يا رسول الله هذا يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ . فنزل قوله عز وجل :

«ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار»(١).

● وإذن فليست آيات الفتح إلا بياناً وأماناً للرسول صلى الله عليه وسلم بالمغفرة وللمؤمنين بالجنة ، ويبقى ما أخبر به عليه

---

١ ـ الفتح/٥/ .

الصلاة والسلام في آية الأحقاف محكما لا ناسخ له لأنه حقيقة واقعة بالنسبة له وللأنبياء قبله . . بل لا يجوز النسخ عليه ـ كما أسلفنا ـ لأنه خبر وإنما يجوز النسخ في الأحكام .

●●●

* وفي سورة (القتال) يذكر المؤلف أن آية :

«وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم »(١)

منسوخة بالآية التالية لها :

« إن يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » .(٢)

وهو رأي عجيب كسوابقه من آراء المؤلف في آيات القرآن الكريم ـ فالآية الأولى يقول الله تبارك وتعالى للمؤمنين فيها : إن جزاءكم على الإيمان بي وتقواي محفوظ لكم بإتيانكم أجوركم على ما تبذلونه من جهد ، أو تنفقونه من مال في سبيل الله . . وهو مع ذلك لا يطلب منكم أموالكم لنفسه عز وجل ، وإنما يفرض عليكم الزكاة والصدقات للفقراء من إخوانكم . وقد أكّد ذلك ما جاء في الآية الأخيرة من السورة :

« والله الغني وأنتم الفقراء »

كما أكّدها قوله تبارك وتعالى في سورة فاطر :

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد »(٣)

وفي المعنى نفسه تجيء آية في سورة الحج :

«لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم»(٤).

---

١ ـ محمد/٣٦/ .
٢ ـ محمد/٣٧/ .
٣ ـ فاطر/١٥/ .
٤ ـ الحج/٣٧/ .

وجاءت الآية التالية تصف الطبيعة البشرية في البخل بالأموال :

« إن يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا »

كما تكرر ذلك في القرآن نفسه حكاية عن الإنسان :

« وإنَّه لحب الخير لشديد » (١)

و« وإذا مسَّه الخير منوعاً » (٢)

وغير ذلك من آيات . .

وفي الوقت نفسه تبشر الآية – في ختامها – المنفقين والمتصدقين بأن نفقاتهم وصدقاتهم تخرج الأضغان من صدور المحرومين من فقراء ومساكين :

« إنْ يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » .

وإذن فليس في الآيتين المتتابعتين ناسخ ولا منسوخ . . وإنما هي حقائق عن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعن استجابة الأمة لدعوته بالتقوى والإيمان ، واستغناء الله ورسوله عن أموالهم – وإنما تسأل أموالهم لمصلحة الفقراء منهم ، ولمصلحتهم هم أيضاً لأن الله يثيبهم عليها ، وفي الوقت نفسه يخرج من صدور المحرومين الأضغان والأحقاد التي يحسونها تجاه الأغنياء البخلاء .

●●●

ويقول المؤلف – رحمه الله – إن آية :

« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى »(٣)

---

١ – العاديات/٨/ .
٢ – المعارج/٢١/ .
٣ – النجم/٣٩/ .

نسختها آية سورة الطور :

«والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم»(١)

فجعل الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه ، ويشفع الله تعالى الآباء في الأبناء أو الأبناء في الآباء ، ويدل على ذلك قوله تعالى:

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » .(٢)

وفي هذا الكلام تخليط عجيب بين آيات لا علاقة لإحداها بالأخرى وفيه إبطال لحكمٍ ثابت في آيات متعددة من القرآن الكريم . .

إن قوله عز وجل :

« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى »

محكم تؤيده آيات متعددة كقوله تبارك وتعالى :

« إنّما تجزون ما كنتم تعملون »(٣)

وقوله عز وجل :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(٤)

وقوله :

« لتجزى كل نفس بما تسعى »(٥)

« كل امرىء بما كسب رهين »(٦)

وغير ذلك من آيات لا نطيل بسردها .

---

١ ـ الطور/٢١/ .
٢ ـ النساء/١١/ .
٣ ـ الطور/١٦/ .
٤ ـ التوبة/١٠٥/ .
٥ ـ طه/١٥/ .
٦ ـ الطور/٢١/ .

أما الآية الناسخة بزعم المؤلف :

« والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان »

فهي لا تعني الأطفال الذين توفوا قبل البلوغ . وإنما تعني الذرية البالغة التي اقتدت بآبائها في الإيمان بالله . . والآية صريحة في ذلك فهي تقول :

« واتّبعتهم ذريتهم بإيمان »

والإيمان يقتضي العمل كما جاء في الحديث الصحيح (ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل) .

وإذن فالذرية هنا ساعية بإيمانها وعملها ، وليست خالية من إيمان وسعي . . فكيف تعد الآية الثانية مبطلة للآية الأولى وحكمها واحد ؟ ويشهد لذلك ما جاء في القرآن العظيم في إبراهيم :

« قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين » (١)

وقد يقال إن الآية الأولى عامة خصص حكمها بما جاء في الأحاديث الصحيحة من قبول عمل الولد لأبيه وأمه كأن يحج عنهما ، أو يتصدق على أرواحهما ، أو يدعو لهما . وقد جاء في الحديث : (إنّ ولده من كسبه) أما قوله عز وجل :

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا »

فقد جاءت في ختام آية المواريث من سورة النساء دفعاً لاعتراض من يعترض من قصارو النظر على إعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين ، والزوجة مرةً الثمن ، ومرةً الربع .. الخ ..

---

١ ـ البقرة/١٢٤ .

أي أن الناس لا يعلمون من ينفعهم ومن يضرهم من أقاربهم .. آباءً كانوا أم أبناء ، ولكن الله هو العليم وحده بالأسرار وهو الحكيم وحده فيما قسم من ميراث .

ولا علاقة لهذه الآية بمجازاة الإنسان على قدر سعيه ، وما قدم من خير أو شر . يقول الإمام ابن كثير — رحمه الله — في تفسيره قوله تعالى :

« ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى . وانْ ليس للإنسان إلا ما سعى . وأنَّ سعيه سوف يرى »(١)

أي كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية الكريمة — استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن قراءة القرآن لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنها ليس من عملهم ولا كسبهم .

ثم أضاف ابن كثير قوله : (وأما حديث مسلم الذي رواه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولدٍ صالح يدعو له ، أو صدقةٍ جارية . أو علم ينتفع به) فهذه الثلاثة في الحقيقة من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه . وأن ولده من كسبه) . .

* * *

١ — النجم/٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠/ .

ويقول المؤلف : ان قوله عز وجل من سورة الممتحنة :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين »(١)

منسوخ بالآية التالية لها :

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . .

● والآيتان محكمتان : الأولى تقرر أن على المسلمين أن يحسنوا ويعدلوا في معاملة المخالفين لهم في الدين . . ما داموا مسالمين لهم لا يقاتلونهم ، ولا يخرجونهم من ديارهم ، ولا يؤذونهم بقولٍ أو عمل . والله عز وجل بنص الآية نفسها : **« يحب المقسطين »** .

والآية الثانية تقرر حكماً آخر ثابتاً عكس الأول وليس مبطلاً له . لأن كلاً من الحالتيْن ما زالتا قائمتين ما دام هنـــاك إسلام ومسلمون ـــ تقرر أن الله يحرِّم موالاة المسلمين للكفار الذين يقاتلونهم ويخرجونهم من ديارهم . وينصرون من يقاتلهم أو يخرجهم . .

انها طائفة أخرى مجاهرة بعدائها وإيذائها للمسلمين . ولذلك يمنع الإسلام من اتخاذ هؤلاء أولياء وأصدقاء ، وينذر القرآن العظيم في هذه الآية من يتولاهم ويصادقهم من المسلمين بأنه

---

١ ـــ الممتحنة/٨/ .

من الظالمين .

فلكل من الفريقيْن حالة ، ولكل من الحالتيْن حكمٌ سديدٌ رشيد : للمسالم الإحسان والإنصاف ، وللمخاصم العداء والجفاء .

●●●

* وفي سورة الممتحنة أيضاً يرى المؤلف أن قوله عز وجل :

«يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن»(١)

منسوخة بقوله من الآية نفسها :

« فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » .

وهو رأي عجيب أيضاً ، فالآية واحدة . . والحكم فيها متتابع مفصَّل . وما زعمه المؤلف ناسخاً منها هو مترتب على ما زعمه منسوخاً . . فالمطلوب أولاً امتحان هؤلاء المؤمنات المهاجرات ، فإن ثبت إيمانهن فيجب عدم ردهن إلى أزواجهن المشركين ، لأنهن لسن حلالاً لهم ولا هم حلال لهن . . كما جاء ذلك في بقية الآية . .

ولا يتصور أن يكون الأمر – في الآية – بعدم إرجاعهن إلى الكفار ناسخاً للأمر بامتحانهن الذي هو سبيل معرفة حقيقتهن هل هن مسلمات حقاً أم هن نافرات من أزواجهن ؟

---

١ – الممتحنة/١٠/ .

وبعبارة أخرى : ان عدم الارجاع مبنيٌّ على نتيجة الامتحان..
فإذا لم يكن امتحان فلن يكون احتفاظ بالمؤمنات المهاجرات . .

●●●

وفي سورة المزمل يقول المؤلف : إن قوله تعالى :

« يا أيُّها المزمل قم الليل »(١)

منسوخٌ بقوله :

« إلا قليلا »

وقوله **« إلا قليلا »**

منسوخ بقوله :

« نصفه أو انقص منه قليلا »(٢)

أي الثلث — وأن قوله :

« إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلا »(٣)

منسوخ بقوله :

« يريد الله أن يخفف عنكم » .(٤)

وهكذا مزّق المؤلف الآية الكريمة الواحدة تمزيقاً شنيعاً ، وكرَّر خطأه السابق في اعتبار الاستثناء نسخاً .

والآية الكريمة كغيرها وأمثالها من آيات القرآن العظيم نفسه .

---

١ ـ المزمل/١ ، ٢/ .
٢ ـ المزمل/٣/ .
٣ ـ المزمل/٥/ .
٤ ـ النساء/٢٨/ .

يأمر الله عز وجل فيها رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوم الليل إلا بعضه . . وذلك أن يقوم نصف الليل أو أقل من النصف — أي الثلث . أو يزيد على النصف — أي الثلثين .

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا التوجيه الإلهي بالقيام في الليل مخيّر في قيام ما يستطيع من هذه المقادير الثلاثة : النصف ، أو الثلث ، أو الثلثين :

« يا أيُّها المزّمِّل . قم الليل إلاّ قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »(١)

و (نصفه) بدل من (الليل) كما يرى الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين . . ثم خفف الله عن رسوله — في ختام السورة — وعن المؤمنين في قوله تعالى :

« إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدِّر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن »الآية. .(٢)

أي قوموا من الليل ما تيسر لكم .

* ولو أن المؤلف قال : إن الآية الأولى كلها من سورة المزمل منسوخة بالآية الأخيرة منها فربما كان ذلك جائزاً ومعقولاً .. أما أن يمزق الآية الكريمة الواحدة هكذا تمزيقاً يشوه استقامة معانيها وجمال سياقها — فهذا هو غير المعقول ، وغير المقبول ، وغير الصحيح .

* * *

١ — المزمل/١ — ٤/ .
٢ — المزمل/٢٠/ .

وفي سورة العصر يقول المؤلف : جميعها محكم والمنسوخ فيها آية واحدة في قوله تعالى :

« إنّ الإنسان لفي خسر »(١)

نسخت بالاستثناء لقوله :

« إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢)!

وهو رأي عجب من المؤلف — إذ قال أولا : ان جميع السورة محكم إلا آية :

« إنّ الإنسان لفي خسر »

نسختها الآية التالية لها — فماذا بقي في السورة محكماً إذا كانت الآية الثانية منها منسوخة بالثالثة وهما كل موضوع السورة وجماع مقاصدها .. إذْ لم يبق منها إلا الآية الأولى وهي القَسم : (والعصر) فهل القسم وحده هو المحكم ؟ وماذا بقي له من معنى إذا أبطلنا معنى المقسم عليه وهو قوله :

« إنّ الإنسان لفي خسر »

لأن إبطال المستثنى منه بالمستثنى يبطلهما معاً . . وذلك كلام غير معقول ولا مقبول . . ونضرب لذلك مثلا : إذا قلنا (جاء القوم إلا محمداً) ثم نفينا مجيء القوم بمجيء محمد . . نكون قد عكسنا المعنى المقصود أولاً والمفهوم حقيقة من قولنا : (جاء القوم إلا محمداً) .

---

١ — العصر/٢/ .
٢ — العصر/٣/ .

هذا من حيث التعبير اللغوي والنحوي : أما من حيث حكم السورة ومعنى الآيتين الثانية والثالثة منها فالواضح الذي لا يخفى على العقل الفاهم : ان مقاصد السورة محكمة وثابتة وقائمة تماماً كمقاصد ما جاء في سورة (التين) من قوله عز وجل :

« **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات الآية .. (١)** » .

ان المعنى واحد في السورتين : أن الناس خاسرون وسافلون . مهما اكتسبوا من ثروة وغنى في الدنيا ومهما علوا مقاماً وجاهاً . . ما لم يقترن غناهم ومجدهم بالإيمان والعمل الصالح وبعبارة أخرى : ان الرابحين الناجحين الأعليْن في الدنيا والآخرة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر .

والاستثناء لا يصح أن يكون ناسخاً لما قبله . وإنما يكون مغايراً أو مناقضاً للمستثنى منه ، مع بقاء حكم كل منهما مفيداً لمعناه . وإلا بطل المستثنى منه كما أسلفنا وأصبح الكلام لغــواً لا مفهوم له .

● وإذا كان المؤلف ـ رحمه الله ـ يقول في مقدمة رسالته عن الناسخ والمنسوخ في القرآن العظيم : ان النسخ في اللغة معناه ابطال شيء وإقامة آخر مكانه ـ وان النسخ في القرآن الكريم : هو ابطال الحكم مع اثبات الخط . وكذلك هو في السنة ـ وضرب مثلا لذلك عِدّة المتوفى عنها زوجها كانت سنة ثم أصبحت أربعة أشهر وعشرة أيام في آيتين من القرآن الكريم وقال :

---

١ ـ التين/ ٤ ـ ٦/ .

ان الآية المنسوخة لا يعمل بها . . الخ . .

فهل أصبحت الآية :

« إنّ الإنسان لفي خسر »

باطلة المعنى والحكم ؟ ولم يعد هناك في الناس من هم خاسرون فعلاً وواقعاً لأنهم كافرون بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ؟ .

وقال المؤلف أيضاً – في المقدمة – ان المنسوخ لا يكون إلا حكماً شرعياً لأن الأمور العقلية لا تنسخ – وقال : إن النسخ لا يقع في الأخبار المحضة ، وإنما يقع في الأمر والنهيْ ، وأن الاستثناء ليس بنسخ . . الخ . .

وقد رأينا المؤلف في قوله عن وجود نسخ في سورة (العصر) قد خالف ما حكاه في المقدمة من أن النسخ لا يكون إلا في الأمر والنهي ، وأن الاستثناء ليس نسخاً . .

وليس في سورة العصر أمر ولا نهي وإنما هي خبر عن حقيقة الإنسان قبل الإيمان وبعده . وما جاء في الآية الثالثة منها هو استثناء من حكم الآية الثانية . . أي استثناء المؤمن الرابح من الكافر الخاسر . . واستثناء الذين يعملون الصالحات ويتواصون بالحق والصبر . . ممن يفسدون في الأرض ولا يتناصحون فيما بينهم بالحق والصبر . .

●●●

ومن اسراف المؤلف في القول بنسخ آيات محكمات كثيرات قوله : ان الآيات التالية بالإضافة إلى ما أسلفناه من آيات مماثلة ــ قد نسختها جميعاً آية السيف وهي قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق. . » (١).

وهذه هي الآيات التي يقول بأنها منسوخة بآية السيف :

- **« الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » .(٢)**
- **« فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » (٣) .**
- **« فارتقب إنهم مرتقِبون » .(٤)**
- **« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .(٥)**
- **« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك » .(٦)**
- **« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا »(٧) .**
- **« وما أنت عليهم بجبار » .(٨)**
- **« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » (٩) .**
- **« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » (١٠) .**

---

١ ــ التوبة/٢٩/ .
٢ ــ الشورى/٦/ .
٣ ــ الشورى/١٥/ .
٤ ــ الدخان/٥٩/ .
٥ ــ الأحقاف/٣٥/ .
٦ ــ طـه/١٣٠/ .
٧ ــ الانسان/٢٤/ .
٨ ــ ق /٤٥/ .
٩ ــ الطور/٤٩/ .
١٠ ــ القلم/٤٤/ .

- **« ذرني ومن خلقت وحيداً » (١).**
- **« إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » (٢).**
- **« فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً »(٣) .**
- **« لست عليهم بمصيطر » (٤).**
- **« أليس الله بأحكم الحاكمين »(٥) .**
- **« لكم دينكم ولي دين »(٦) .**

والمتأمل لهذه الآيات القرآنية . . لا يجد فيها إلا أن الله تبارك وتعالى يوصي نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وأن يستقيم على الدعوة إلى الله ، وألا يتبع أهواء المعارضين له .

ويوصيه أيضاً بالانتظار والارتقاب ، وألا يستعجل عقوبة هؤلاء المخالفين . . ومع الصبر يوصيه بالتسبيح والتحميد له عز وجل فذكر الله مما يعين الدعاة المجاهدين .

ويقول الله عز وجل له لما رأى من حرصه على هداية قومه : ما أنت عليهم بجبار ، ولست عليهم بمسيطر حتى ترغبهم على قبول الهدى . . إنما أنت مذكّر ، والقرآن الكريم تذكرة لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، ثم أليس الله بأحكم الحاكمين في تدبير شئون خلقه ؟ وفي إمهال المذنبين والكافرين ؟

---

١ ـ المدثر/١١/ .
٢ ـ المزمل/١٩/ .
٣ ـ الطارق/١٧/ .
٤ ـ الغاشية/٢٢/ .
٥ ـ التين /٨/ .
٦ ـ الكافرون/٦/ .

وفي لحظات العناد وإصرار المخالفين على الكفر يوصيه أن يقول لهم :

« لكم دينكم ولي دين »

كما قال لهم في موقف مشابه :

« لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم »(١)

بل أرخى لهم العنان أكثر من ذلك فقال لهم :

« لا تُسألون عمَّا أجرمنا ولا نُسأل عما تعملون » (٢) .

فماذا في هذه الآيات المحكمات ذات المقاصد التربوية العظيمة ، في مقام توجيه الرسول عليه الصلاة والسلام وتوجيه العلماء والدعاة من أمته ، الذين هم خلفاؤه في الدعوة إلى دين الله القويم على مر العصور وتتابع الأجيال .

ماذا في معانيها مما يصح أن يقال انه منسوخٌ بآية السيف ؟ وهي آداب وأخلاق ماجدة خالدة يحتاجها كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبالقرآن العظيم ، والرسول الكريم ؟

●●●

وبعد . . فلا أدري هل أقول : أن هذا الكتاب ربما كان منسوباً لهذا المؤلف الجليل ، وهو ليس من تأليفه – كما قلت ذلك في كتاب (الفوائد في مشكل القرآن الكريم) المنسوب إلى سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام – لأن كلا المؤلفين أجل من أن يقولا في هذين الكتابيْن ما قالاه أو نسب إليهما وهما منه بريئان ؟!

---

١ – الشورى/١٥/ .
٢ – سورة سبأ/٢٥/ .

الفصل الثاني

توهم الاضطراب في آي الكتاب



لفضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطي – رحمه الله – قدم صدق ، ويد طولى في تفسير القرآن الكريم ، وله كتاب قيم في ذلك وهو « أضواء في علوم القرآن » . وقد سعدت بقراءة مقالاته المتتابعة في مجلة الجامعة تحت عنوان « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » صال فيه وجال بعلمه الواسع ، وفكره الثاقب وانتفعت بآرائه ونظرياته في التوفيق بين بعض المفهومات القرآنية وبعضها الآخر ، وإني لأدعوله حسن الجزاء ، وجزيل المثوبة .

وخلال تتبعي لمقالاته الروائع – في مجلة الجامعة – بدت لي طائفة من الملاحظات والتعليقات ، فأحببت أن أثبتها هنا لعل فيها ما يعين على فهم كتاب الله دون توهم للاضطراب ، أو ظن للاستشكال . . لأن الله عز وجل يكرر في القرآن : أنه جاء بلسان عربي مبين ، وأنه لا اختلاف في ألفاظه ، ولا تناقض في أهدافه ، ولا اضطراب في معانيه .

ومن ناحية أخرى : لو أنَّا ربطنا بين الآيات ذات الموضوع الواحد أو القضية الواحدة – ولو كانت موزعة على سور متعددة – لما اختلفت معانيها ومقاصدها ولما توهم متوهم اضطراباً أو تناقضاً بينها .

قلوبُ المؤمنينَ بينَ الوجل والاطمئنان

يذكر الشيخ الشنقيطي قوله تعالى : « **إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** » (١) .

---

١ – الأنفال/٢/ .

ثم يقول : هذه الآية تدل على أن وجل القلوب عند سماع ذكر الله من علامات المؤمنين . . وقد جاءت آية أخرى تقول :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب »(١)

فالمنافاة بين الطمأنينة ووجل القلوب ظاهرة – والجواب عن هذا : أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد والوجل يكون عند خوف الزيغ عن الهدى .. الخ ..

● **قلت** : لا منافاة بين الوصفين بالوجل أولاً وبالاطمئنان ثانياً ، فهما وصفان مُتلازمان لقلوب المؤمنين الصادقين ، فهم إذا ذكروا الله تارة خافوا تقصيرهم ، وخافوا ألا تقبل أعمالهم الصالحة لما قد يكون خالطها من رياء وسمعة لم يتعمدوهما . . كما جاء ذلك في الآية :

«والذين يُؤتُون ما آتَوْا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون»(٢)

وإذا ذكروا الله تارة أخرى اطمأنوا إلى عدله ورحمته ووعده بالمثوبة المضاعفة على الصبر والذكر والشكر . .

ثم إن الآيتين الأولى والثانية اللتين يقول الشيخ : ان المنافاة بينهما ظاهرة . . قد اشتملتا كلتاهما على « الإطمئنان » و « زيادة الإيمان » بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكما جاء في الثانية :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

---

١ – الرعد/٢٨/ .
٢ – المؤمنون/٦٠/ .

جاء في الأولى :

« وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً » .

وإذن فالمنافاة بينهما ليست ظاهرة حتى ولا باطنة أيضاً .

● ● ●

لا نسخ في النفرة ولا نسخ في العدد

وأورد الشيخ قوله عز وجل :

« إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين » (١)

وقال : ظاهر هذه الآية أن الواحد من المسلمين يجب عليه مصابرة عشرة . . وقد ذكر الله ما يدل على خلاف ذلك في قوله :

« فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين »(٢)

والجواب : ان الأول منسوخ بالثاني كما دل عليه قوله :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » (٣) .

● **قلت** : الذي أفهمه من الآيتين ، وهما متتاليتان ــ في سورة الأنفال ــ أنهما مترابطتان لفظاً ومعنى . ولا نسخ في الآية الأولى ، بل هناك تفريق وتمييز بين حالتين ، الحالة الأولى إذا كان المسلمون أقوياء فالواحد منهم يغلب عشرة من الكفار ،

---

١ ــ الانفال/٦٥ .
٢ ــ الانفال/٦٦ .
٣ ــ الانفال/٦٦ .

والحالة الثانية إذا كانوا ضعافاً فواحدهم يغلب اثنين من أعدائهم ، وهذه مزية المسلم بإيمانه على الكافر بكفره إذا تساويا قوة وسلاحاً .

وأورد الشيخ أيضاً هذه الآية :

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم »(١)

ثم قال : إنها تدل على لزوم الخروج للجهاد في سبيل الله على كل حال ، وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك كقوله :

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله »(٢)

وقوله تعالى :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة . . . »(٣)

والجواب : إن آية :

« انفروا خفافاً وثقالاً »

منسوخة بآيات العذر المذكور .

● **قلت** : ولا نسخ هنا أيضاً ، فالآية الأولى تدعو المسلمين إلى النفرة جهاداً بالأنفس والأموال ، خفافاً بأنفسهم ، وثقالا بأموالهم أطعمة وأسلحة . . حسب حالة كل منهم فقراً أو غنى ، وضعفاً أو قوة ، ودربة على القتال أو قدرة على خدمة الجيش .

---

١ ـ التوبة/٤١/ .
٢ ـ التوبة/٩١/ .
٣ ـ التوبة/١٢٢/ .

أما الآيات الأخرى فهي بيان لأعذار المعتذرين بمرض مقعد ، أو ضعفٍ مُعجز ، ونقول : « مرض مقعد – وضعف معجز » لأن المرضَ والضعف اللذيْن يستطيع معهما الرجل أن يقوم بخدمة المقاتلين إطعاماً وتطبيباً وحراسةً ليسا عذراً للقعود عن الجهاد في سبيل الله بالنفس ، وكذلك الذي لا يجد مالا ينفقه إذا وجد من ينفق عليه وجب عليه الخروج للجهاد بنفسه .

والآية الأخرى :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة . . »

تعني أن ينفر البعض للتفقه في الدين والدعوة إلى الله . .فتمامها . .

« . . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » (١)

فلا خلاف ولا تناقض بين الآيتين وأمثالهما في القرآن الكريم . وأشباه هذا التشريع القرآني كثيرة . . فقد أمرنا بالصلاة قياماً ، وأمرنا بالوضوء من الماء ، وليس الترخيص بالقعود للصلاة وبالتيمم لأصحاب الأعذار ناسخاً للأمر الأول ، وإنما هو استثناء لحالات الضرورة – كما هو الشأن في كل التشريعات الإسلامية – وكذلك الأمر والحال في النفرة للجهاد في سبيل الله حرباً أو تفقهاً في الدين ، أو دعوةً إلى دين الله القيِّم .

● ● ●

---

١ – سورة التوبة/١٢٢ .

أهل الكتاب مشركون
والعطف لا يقتضي المغايرة دائماً

وذكر الشيخ قوله عز وجل :

« وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله — إلى قوله — سبحانه عما يشركون »(١)

ثم قال : هذه الآية فيها التنصيص الصريح على أن كفار أهل الكتاب مشركون بدليل قوله فيهم **« سبحانه عما يشركون »**

بعد أن بين وجود شركهم بجعلهم الأولاد لله ، واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله — ونظير هذه الآية قوله تعالى : **« إنّ الله لا يغفر أن يُشركَ به » (٢)**

لاجماع العلماء أن كفار أهل الكتاب داخلون فيها .— ثم قال الشيخ : وقد جاءت آيات أخرى تدل بظاهرها على أن أهل الكتاب ليسوا من المشركين كقوله :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين »(٣)

وقوله :

« إنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم»(٤)

---

١ ـ التوبة/٣٠ ، ٣١/ .
٢ ـ النساء/٤٨/ .
٣ ـ البينة/١/ .
٤ ـ البينة/٦/ .

وقوله :

« ما يَوَد الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزّل عليكم من خير من ربكم »(١)

والعطف يقتضي المغايرة - ثم أضاف : إن الشرك الأكبر المقتضي الخروج من الملة أنواع ، وأهل الكتاب متصفون ببعضها وغير متصفين ببعض آخر منها ، فهم غير متصفين بما اتصف به كفار مكة من عبادة الأوثان ، ولذا عطفهم عليهم ، وهذه المغايرة هي التي سوّغت العطف فلا ينافي أن يكون أهل الكتاب مشركين بنوع آخر من أنواع الشرك الأكبر ، وهو طاعة الشيطان والأحبار والرهبان . . . الخ .

● **قلت** : لا حاجة إلى هذا التحليل أو التعليل الكثير . . لأن العطف لا يقتضي المغايرة دائماً ، فقد يكون عطف بيان ، أو عطف تخصيص ، أو عطف تمييز ، أو عطف تكريم ، أو عطف تنويع . . فقد جاء ذكر المشركين كطائفة أخرى من الكفار ، لأن هذا هو وصفهم واسمهم الذي عرفوا به كما وصف اليهود والنصارى - وهم كفار مثلهم من حيث الوصف العام - بأنهم أهل الكتاب وسُمّوا بذلك أيضاً . والجامع بينهم أو الوصف العام لهم هو الكفر بالإسلام كتاباً ورسولاً وديناً . وقد وصف أهل الكتاب بالشرك لأنهم قالوا : المسيح ابن الله وعزيرٌ ابن الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

---

١ - البقرة/١٠٥/ .

فلا منافاة ظاهرة ولا باطنة بين ألفاظ الآيات ومعانيها ، ولا حاجة إلى أن نتوهمها ثم ننكرها باسم دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب !

● ● ●

هذا الاستثناء: تعبير عن المشيئة الإلهية المطلقة فحسب

وتعرض الشيخ الشنقيطي للآية :

« قال النّار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله » (١)

وسرد آيات أخرى مماثلة عن خلود أهل النار فيها وخلود أهل الجنة فيها مع هذا الاستثناء :

« إلاّ ما شاء الله » . . .

مع آيات أخرى تفيد الخلود الدائم دون استثناء كقوله عز وجل :

« كلما خبت زدناهم سعيراً» (٢) ، « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » (٣) ولهم عذاب مقيم (٤) . . »

ولم يقل الشيخ رأيه في هذا الاستثناء :

« إلا ما شاء الله »

---

١ ـ الأنعام/١٢٨/ .
٢ ـ الاسراء/٩٧/ .
٣ ـ فاطر /٣٦/ .
٤ ـ المائدة /٣٧/ .

وإنما ذكر آراء بعض المفسرين كقولهم : إن ذلك يعني خلود أهل الكبائر في النار – أو أن المدة المستثناة هي ما بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم – أو أن الاستثناء مجمل وقد جاءت الآيات الأخرى والأحاديث الصحيحة مصرحة بالخلود الأبدي .

● **قلت** : هذه الوجوه لتفسير قوله :

« إلا ما شاء الله »

لا غناء بها ، ولا شفاء فيها ، لأن هذا الاستثناء ورد كثيراً في القرآن في غير موضوع خلود العذاب وخلود النعيم ، وبالنسبة لغير أهل النار وغير أهل الجنة . . فلا بد له من تحليل قويم ، وتعليلٍ سليم ، وإدراكٍ فهيم .

إن هذا الاستثناء – في رأينا – إنما جاء لتقرير المشيئة الإلهية المطلقة ، التي لا تحدها الحدود ، ولا تشلها القيود ، ولا يمنعها ما سنه الله تبارك وتعالى من سنن وقوانين بشرية وكونية .

وها هو ذا القرآن نفسه يعرض موضوعات أخرى كمظهر لهذه المشيئة الإلهية المطلقة – غير موضوع الخلود في الجنة والخلود في النار :

● **« فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » (١) .**

● **« بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » (٢) .**

---

١ – البقـرة /٢٨٤/ .
٢ – الأنعـام /٤١/ .

- « لتدخلُنَّ المسجد الحرام إنْ شاء الله آمنين » (١) .
- « ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء »(٢)
- « ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره »(٣) .
- « ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا » (٤).
- « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » (٥).
- « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (٦)» .

ولنعد نتأمل الآيات السابقة بعد سردها . . لنرى أن الله عز وجل يقدم مشيئته قبل كل شيء ، مع ما سبق من سننه الكونية وقضائه الأزلى ، ومع ما جاء في القرآن نفسه وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : من أن مغفرة الله حق للتائبين المستغفرين ، وأن عذابه حق على العصاة المُصرِّين . .

ومع وعده لرسوله ، ورؤياه المنامية بدخول المسجد الحرام فهو يقول :

« إن شاء الله » . .

---

١ ـ الفتح /٢٧/ .
٢ ـ الأحزاب /٢٤/ .
٣ ـ عبس /٢١ ، ٢٢/ .
٤ ـ الأنعام /٨٠/ .
٥ ـ الأعراف /٨٩/ .
٦ ـ الشورى /٢٩/ .

ومع وعده الصادق الذي لا يخلفه باستجابة دعاء المضطرين فهو يقول : « **إن شاء** » – ويقول مثلها في تعذيب المنافقين مع أنه حق عليهم – وكذلك نشر الموتى بعد موتهم حقٌ وواقع لا ريب فيه ، ولكنه يقرنه هنا بعبارة الاستثناء « **إذا شاء** » .

ومع أن الأنبياء محفوظون وهم لا يخافون أحداً ولا شيئاً ، لأنهم متوكلون على الله ، وهو عز وجل عاصمهم من الناس – إلا أن إبراهيم عليه السلام يدرك مبلغ المشيئة الإلهية المطلقة ، فيستثنى من عدم خوفه من آلهتهم إلا أن يشاء الله شيئاً لا يعلمه إبراهيم . .

ومثله مقالة الرسل عليهم السلام لأقوامهم : انهم لن يعودوا إلى ملتهم ملة الكفر والشرك والوثنية ، وذلك حق لا ريب فيه ، والله مانعهم وعاصمهم من العودة إلى الجاهلية . . ولكنهم يستثنون فيقولون : « **إلا أن يشاء الله ربنا** » .

وكذلك جمع الناس ليوم القيامة بعد تفرقهم في الزمان والمكان على مدى عمر الدنيا الطويل : حقٌ وواقع لا ريب فيه ، ومع ذلك تقدم المشيئة الإلهية المطلقة :

« **وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** » .

● ● ●

ونعود إلى قول بعض المفسرين : إن الاستثناء في خلود الكفار في النار أمكن تفسيره أو تخصيصه بأصحاب الكبائر ، أو الفترة

بين البعث والاستقرار في جهنم – فماذا يقول أصحاب هـذا الرأي في الاستثناء المماثل في آيات نعيم المؤمنين كقوله تعالى :

« وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك » (١)

هل يستطيعون تخصيصه بأصحاب الصغائر ؟ أو بالمدة بين البعث من القبور والاستقرار في الجنة ؟ !

وهناك – في القرآن الكريم – أمثلة بل حقائق بل هي وقائع من المشيئة الإلهية المطلقة التي تنير السبيل للأذهان لإدراك الحكمة وراء تقرير القرآن لحقيقة هذه المشيئة الإلهية المطلقة . .

الأولى – قصة زكريا عليه السلام ، الذي بشره الله بولادة يحيى على الرغم من شيخوخته ، وعقم زوجته :

« قال رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكِبَرُ وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . . » (٢) .

الثانية – قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، جاء من غير أب ، وعجبت أمه مريم :

« أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء » (٣).

---

١ – هود /١٠٨/ .
٢ – آل عمران /٤٠/ .
٣ – آل عمران /٤٧/ .

الثالثة ــ قصة ولادة اسحاق لإبراهيم عليهما السلام وعجب زوجه سارة :

« قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله » (١) .

وأمثالها في القرآن كثيرة ويكفي أن نقول أن : سنة الله تبارك وتعالى ، أن جعلها ثابتةً يدبر بها شئون الناس والكون والحياة هو خلقها وهو الذي يحكمها ويتخطاها بعدله وحكمته ورحمته أيضاً . لأن له سبحانه مطلق الإرادة ، ومطلق المشيئة :

« لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » (٢) .

● ● ●

كلام الكفار وسلوكهم يوم القيامة

وتحدث الشيخ عن آية :

« ولا يكتمون الله حديثاً »(٣)

وقال : إنها تدل على أن الكفار لا يكتمون من خبرهم شيئاً يوم القيامة ، وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك ، كقوله تعالى :

« فألقوا السَّلم ما كنا نعمل من سوء »(٤)

---

١ ــ سورة هــود /٧٣/ .
٢ ــ الأنبيــاء /٢٣/ .
٣ ــ النســاء /٤٢/ .
٤ ــ سورة النحــل /٢٨/ .

وقوله :

« بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » (١)

ووجه الجمع في ذلك هو ما بينه ابن عباس رضي الله عنهما عندما سئل عن قوله :

« والله ربنا ما كنا مشركين »(٢)

مع قوله :

« ولا يكتمون الله حديثا »

وهو أن ألسنتهم تقول : والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله عليها وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ كما جاء في سورة يس . . الخ . .

● قلت : وإن هذا شأن المذنب حتى في الدنيا عندما يقف للتحقيق بين أيدي رجال الشرطة فتارة يعترف بذنبه ، وأخرى ينكر ويقسم على براءته حسب ما يرى من هول الموقف أو الاطمئنان على نفسه ! .

● ● ●

حساب الكافر في الدنيا والآخرة

واورد الشيخ الشنقيطي ما فسر به جماعة قوله تعالى :

« ووجد اللهَ عنده فوفّاه حسابه »(٣)

---

١ ـ غافر : المؤمن /٧٤/ .
٢ ـ الانعام /٢٣/ .
٣ ـ النور /٣٩/ .

أي أثابه على عمله الطيب في الدنيا ، وهو صريح قوله تعالى:
« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها » (١).

● **قلت** : ان الآية الأولى تذكر أن الكافرين :
« أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب »(٢)

أي أن الآية تتحدث عن محاسبة الكافرين في الآخرة وليس عن إثابتهم على العمل الطيب ــ كما ذكر الشيخ .

أما الآية الأخرى فهي تعني أن من يعمل للدنيا ويرجو خيرها يحقق أمله فيها . وما نراه من نجاح وتقدم وتفوق للكافر في الدنيا إنما هو موافقة لسنة إلهية إذ انتفع الكافر بما سخر الله له من مرافق في الأرض والجو علمية وتطبيقية . . بينما أهمل المسلمون الانتفاع بالمسخرات الكونية ، فكان ما نرى من ضعفهم وتخلفهم وهزيمتهم أمام أعدائهم :

« سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »(٣)

وعلق الشيخ على هذه الآية :

« ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٤)

---

١ ـ هود /١٥/ .
٢ ـ سورة النور /٢٩/ .
٣ ـ سورة الفتح /٢٣/ .
٤ ـ يونس /١٨/ .

بقوله : هذه الآية الكريمة تدل على أنهم يرجون شفاعة أصنامهم يوم القيامة ، وقد جاء في آيات أخرى ما يدل على انكارهم لأصل يوم القيامة كقوله :

« وما نحن بمبعوثين »(١)

وقوله :

« وما نحن بمنشرين »(٢)

والجواب : انهم يرجون شفاعتها في الدنيا لصلاح معاشهم وفي الآخرة على تقدير وجودها لأنهم شاكون فيها . .

● **قلت** : إن الآية ليس فيها نص على أنهم شفعاء يوم القيامة ، فلماذا نتوهم هذا المعنى ثم نحاول دفعه ؟ وهي شبيهة بقولهم في آية أخرى :

« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »(٣)

دون نص على أن ذلك في الدنيا أو الآخرة . ثم إن الكفار طوائف ، منهم من ينكر البعث ، ومنهم من يتخذ الشركاء أو الشفعاء أو الأولياء ـ على اختلاف أنواعهم بشراً وحجراً ـ بزعم التقرب بهم ، أو الاستشفاع دون جُحُودٍ للآخرة .

● ● ●

---

١ ـ الأنعام /٢٩/ .
٢ ـ الدخان /٣٥/ .
٣ ـ الزمر /٣/ .

وعلق الشيخ على هذه الآية :

« ربنّا إنلك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (١)

بقوله : إن الله تعالى نص في هذه الآية على أن هذا الدعاء لنبي الله موسى ، ولم يذكر معه أحداً ثم قال :

« قد أجيبت دعوتكما فاستقيما . . . »(٢)

والجواب : ان موسى عليه السلام لما دعا أمّن هارون على دعائه ، والمؤمّن أحد الداعيين ، وقد نقل ذلك ابن كثير في تفسيره عن أبي العالية ، وأبي صالح ، وعكرمة ، والقرظي ، والربيع بن أنس . . وبهذه الآية استدل بعض العلماء على أن قراءة الإمام تكفي المأموم إذا أمّن على قراءته لأن تأمينه بمنزلة قراءته .

● قلت : لا حاجة إلى هذا الجواب لدفع ما توهمه الشيخ ومن سبقه من اضطراب في آي الكتاب . . ولا دليل في الآية على أن قراءة الإمام تكفي المأموم إذا أمّن له .

---

٢ ـ يونس /٨٨/ .
٣ ـ يونس /٨٩/ .

وإذا أردنا أن نفهم كتاب الله كما ينبغي له من فهْم وعقل وإدراك ــ فلنقرأ آياته ذات الموضوع الواحد جملة واحدة ، ولنلاحظ السباق والسياق ، فذلك معين على الفهم الصحيح ، والعقل الرجيح ، والإدراك النيّر .

إن الآية السابقة لهذه الآية موضوع البحث ــ هي قوله عز وجل :

« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين »(١) .

فاكتفت الآية التالية بذكر موسى في الدعاء على فرعون وملئه موافقة للفاصلة . . وهذا لا يعني أن هارون لم يشترك في الدعاء مع موسى وأنه أمّن على دعائه . ومثلها قوله عز وجل عن آدم وحواء :

« فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى »(٢)

وكقوله حكاية عن فرعون :

« فمَن ربُّكما يا موسى »(٣) .

فقد ثنّى أولاً ثم أفرد ثانياً . . وأشباه هذا (الانصراف)

---

١ ــ يونس /٨٧/ .
٢ ــ طـه /١١٧/ .
٣ ــ طـه /٤٩/ .

من الجمع والمثنى إلى المفرد وعكسه كثيرة في القرآن الكريم ، وهو أسلوب معروف في الكلام العربي الفصيح .

أهلية النسب وأهلية الدين

وعقب الشيخ الشنقيطي على هذه الآية :

« فقال ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحق »(١)

بقوله : إنها تدل على أن هذا الابن من أهل نوح عليه السلام ، وقد ذكر تعالى ما يدل على خلاف ذلك حيث قال :

« يا نوح إنَّه ليس من أهلك »(٢)

والجواب : إن معنى قوله ليس من أهلك أي الموعود بنجاتهم في قوله :

« لننجينَّك وأهلك »

لأنه كافر لا مؤمن ، وقول نوح إن ابني من أهلي بظنه مسلماً . .

● **قلت** : إن ابن نوح من أهله حقيقةً ونسباً ، ولكنه لما فارق دينه وانضم إلى الكافرين برسالته سلبت هذه « الأهلية » في الاعتبار الديني والميزان الإلهي ، كما سلبت الأهلية نفسها من عم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أبي طالب على الرغم من نصره له ، وتأييده وحمايته ، فمنع من الاستغفار له لأنه فارق دينه ، وكذلك بالنسبة للمسلمين جميعاً فقد منعوا من الاستغفار لذي قرابتهم من المشركين :

---

١ ـ هود /٤٥/ .
٢ ـ هود /٤٦/ .

« ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (١)

بل حتّى المودة ممنوعة بين المؤمنين وأقربائهم المشركين أو الكافرين :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »(٢)

وفي المقابل تقوم القرابة والأهلية بين الأباعد والأجانب إذا جمعتهم العقيدة الواحدة والدين الواحد ، كما قال صلى الله عليه وسلم عن سلمان الفارسي : (سلمان منا آل البيت) .

وإذن فالأهلية المنفية في الآية الثانية هي أهلية العقيدة الإسلامية والأهلية المثبتة في الآية الأولى هي أهلية النسب والقربى . وليس هناك تعارض ولا اضطراب في آي الكتاب ، وإنما هناك الحاجة الماسة عند من يتدبر القرآن إلى إدراك بلاغته بين الحقيقة والمجاز (٣)

أبصار الكفار يوم القيامة

وأورد الشيخ قوله عز وجل :

« وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذُّل ينظرون من طرفٍ خفي »(٤)

---

١ ـ سورة التوبة/١١٣

٢ ـ سورة المجادلة/٢٢

٣ ـ في كتاب (عصمة الانبياء) للامام فخر الدين الرازى (ص/٦٤ـ٦٦) بحث في اختلاف المفسرين حول نسب ابن نوح وحول عصمة نوح عن المعصية في سؤال ربه نجاة ابنه ٠

٤ ـ الشورى /٤٥/ ٠

ثم قال : إن هذه الآية تدل على أن الكفار يوم القيامة ينظرون بعيون خفية ضعيفة النظر . وقد جاءت آية أخرى يتوهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى :

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (١) .

والجواب هو ما ذكره صاحب الإتقان من أن المراد بحدة البصر العلم وقوة المعرفة . .

● **قلت** : إن سياق كل آية يختلف عن الآخر . . فالآية الأولى تصويرٌ للعرض على النار بعد الفراغ من الحساب ، والثانية تصويرٌ لحالهم حين البعث من القبور وابتداء الحساب :

« ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »(٢) .

فليس هناك ما يوهم الاضطراب بين الآيتين ، أو المعارضة بين حالة الكفار حين العرض على النار ، وحالهم عند البعث من القبور . ومن ناحية لغوية إن قوله :

« ينظرون من طرف خفي »

ليس معناه أن عيونهم ضعيفة النظر ، وإنما معناه أنهم ينظرون بعيون خاشعة خانعة ، لأنهم لا يستطيعون رفع رؤوسهم خزياً

---

١ ـ ق /٢٢/ .
٢ ـ سورة ق /٢٠ ـ ٢٢/ .

وهواناً . . وهي حالة معروفة في المخذولين في الدنيا وكذلك حال أمثالهم في الآخرة .

● ● ●

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وعلق الشيخ على هذه الآية :

« ذق إنّك أنت العزيز الكريم »(١)

بقوله : إنه يتوهم من ظاهرها ثبوت العزة والكرامة لأهل النار ، مع أن الآيات القرآنية مصرحة بخلاف ذلك مثل قوله :

« سيدخلون جهنم داخرين »(٢)

أي صاغرين أذلاء ، وقوله :

« ولهم عذاب مهين »(٣)

والجواب أنها نزلت في أبي جهل لما قال : أيوعدني محمد ؟ وليس بين جبليها أعز ولا أكرم مني ، فلما عذبه الله قال له :

« ذق إنّك أنت العزيز الكريم »

في زعمك الكاذب . .

● **قلت** : إن سباق الآية أو سياقها لا يساعد على تخصيص نزولها بأبي جهل فهي عامة في كل كافر :

---

١ ـ الدخان /٤٩/ .
٢ ـ غافر /٦٠/ .
٣ ـ آل عمران /١٧٨/ .

« إن شجرة الزَّقُّوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلي في البطون . كغلْي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم » (١) .

فالعذاب بالأكل من شجرة الزقوم عام للآثمين جميعاً ، والتقريع بقوله : « ذُق إنَّك أنت العزيز الكريم » شامل لكل واحد منهم بدون استثناء . ولو فرضنا – جدلاً – أن الآية نازلة في أبي جهل ، فلا تعارض بينها وبين الآيات الأخرى ولا اضطراب في معناها .

فالآيات التي تقرِّر الذل والهوان للمعذبين في النار تقرر حقيقة مادية واقعة لا ريب فيها ، والآية موضوع البحث تحكي موقف الملائكة – ملائكة العذاب طبعاً – وهي تسخر من المعذبين في النار ، وتذكِّرهم بحالهم في الدنيا من عزٍ وغنىً وجاهٍ وسلطانٍ وكرامةٍ وفي هذا النداء والتذكير : زيادة عذابٍ ، ومضاعفة هوانٍ .

وهو أسلوب عربي بليغ معروف ، ويسمى بتأكيد الذم بما يشبه المدح ، ومنه قول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وفي المقابل: تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومنه قول الشاعر أيضاً:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

● ● ●

---

١ – الدخان /٤٣-٤٩/ .

وأورد الشيخ الشنقيطي هذه الآية

« قل ما كنتُ بدْعاً من الرسل وما أدري ما يُفعل بي ولا بِكم »(١)

ثم علق بقوله : هذه الآية الكريمة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم مصير أمره ، وقد جاءت آية أخرى تدل على أنه عالم بأن مصيره إلى الخير وهي قوله تعالى :

« ليغفر لك الله ما تَقدَّم من ذنبك وما تأخَّر » (٢)

فإنَّ قوله : « وما تأخر » تنصيص على حسن العاقبة والخاتمة – والجواب : أن الله تعالى علمه ذلك بعد أن كان لا يعلمه . . وقيل : إنها منسوخة بقوله :

« ليغفر لك الله ما تَقدم من ذنبك وما تأخَّر » . .

وأجاب بعض العلماء : بأن المراد ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من الحوادث والوقائع وعليه فلا إشكال . .

● **قلت** : إنه لا إشكال من قبل إيراد هذا الكلام الكثير الذي لا غناء فيه حول هاتين الآيتين الواضحتين المحكمتين اللتين

---

١ – الأحقاف /٩/ .
٢ – الفتح /٢/ .

لا تعارض بينهما ، ولا نسخ في إحداهما ، فحكاية القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو أمر الله له :

« قــل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم »

آية محكمة لا غبار عليها ، ولا اضطراب فيها ، بجمعها مع الأخرى لأن الرسول كأخوته الأنبياء السابقين لا يعلمون الغيب كله وإلا لشاركوا الله في ملكوته ، وإنما يعلمهم الله ما شاء من الغيوب ، ويحجب عنهم ما شاء . كما أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ـ كما أثبت القرآن ذلك :

« عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول . . » (١) .

وقد أدَّب القرآن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في آياتٍ عديدة ـ بأن يعتذر للناس دائماً بأنه لا يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، وأنه ليس ملكاً . . وإنما هو بشر رسول ، ونذير مبينٌ ، يبلغهم رسالة ربه فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . وأكّدت حادثة الافك ـ كما جاءت في القرآن ـ هذه الحقيقة ، أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم ، فلو كان يعلم براءة عائشة منه ما ظل أياماً طوالاً معرضاً عنها ، ولا استتابها

---

١ ـ الجـن /٢٦ ، ٢٧ .

منه ، ومثلها عتاب القرآن له لإذنه للمنافقين بالخروج معه وقبوله الفداء من أسرى بدر . .

فالآية – ولها أشباه ونظائر في القرآن محكمة تقرر حقيقة الأنبياء والرسل وهي أنهم لا يشاركون الله عز وجل في علم الغيب ، ومنح النفع والضر لأنفسهم وللناس .

في صحيح البخاري : أن أم العلاء زوجة عثمان بن مظعون قالت وزوجها مدرج في كفنه : رحمة الله عليك أبا السائب .. لقد أكرمك الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ والله إني رسول الله وما أدري ما يفعل به ؟

أما الآية الأخرى فإن الله تبارك وتعالى يمن فيها على رسوله الكريم بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولها أشباه ونظائر في القرآن تحكي عن تكريم الله إياه بألوان من النعم والفضائل والكرامات .

وإذن فموضوع كل آية مستقل بمعناه ، ولا تعارض ولا منافاة بينه وبين موضوع الآية الأخرى . .

أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال

وأورد الشيخ قوله عز وجل :

« **وأمَّا مَن أوتي كتابه وراء ظهره** »(1)

وقال : إنها تدل على أن من لم يعط كتابه بيمينه أنه يعطاه

---

1 ـ الانشقاق /10/ .

وراء ظهره ، وقد جاءت آية يفهم منها أنه يؤتاه بشماله :

« **وأما من أوتي كتابه بشماله . .** »(١)

والجواب أنه لا منافاة بين أخذه بشماله وإيتائه وراء ظهره ، لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل يسراه وراء ظهره ، فيأخذ بها كتابه . .

● **قلت** : إن التعبير القرآني بأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر . . هو كناية عن يُمْن المؤمنين ، وشُؤْم الكافرين إذ تعود الناس – كما أدبهم الإسلام – أن يستخدموا اليد اليمنى في الطيبات واليد اليسرى في الخبائث ، كما تعودوا الأخذ من الأمام ، فيكون إيتاء الكتاب من وراء الظهر كأخذه بالشمال – كناية عن شؤمهم ونحسهم وسوء مصيرهم .

ولا حاجة بين توهم المنافاة في الآيات ، ثم محاولة دفعها فإن في ذلك إيحاءً للعامة بأن في آيات القرآن اضطراباً وإشكالا ..

نسيان الخلق ونسيان الخالق

وأورد الشيخ الشنقيطي قوله تعالى :

« **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** »(٢)

وقوله :

« **نسوا الله فنسيهم** »(٣)

---

١ ـ الحاقة /٢٥/ .
٢ ـ الأعراف /٥١/ .
٣ ـ التوبة /٦٧/ .

وقوله :

« وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا »(١)

ثم قال : ان ذلك لا يعارض قوله تعالى :

« وما كان ربك نسيا » (٢)

وقوله :

« لا يضل ربي ولا ينسى »(٣)

لأن معنى ننساهم : نتركهم في العذاب محرومين من كل خير..

● **قلت** : إن للغة العربية ــ والقرآن في الذروة العليا من أساليبها ــ قواعد ومباديء بلاغية معروفة ــ في كتبها الخاصة بها ، ومعروفة في كتب التفسير والحديث . . حيث يشير إليها المؤلفون عند تطبيق هذه القواعد والمباديء البلاغية على آية من القرآن ، أو على حديث من كلام سيد البلغاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هذه المباديء البلاغية ما أطلق عليه علماء البلاغة : « المقابلة ــ أو المشاكلة » ، وهذه الآيات التي أوردها الشيخ الشنقيطي هي من هذا القبيل فقوله : (ننساهم أو ننساكم أو نسيهم) لا يعني أن الله عز وجل ينسى كما ينسى الناس ، وإنما

---

١ ــ الجاثية /٣٤/ .
٢ ــ مريم /٦٤/ .
٣ ــ طه /٥٢/ .

هو تعبير بلاغي رائع عن مجازاتهم على نسيانهم لحق ربهم عليهم من الإيمان به والطاعة له . . أي أن الجزاء من جنس العمل ، أو مقابلٌ أو مشاكلٌ له ــ ولا يتوهم أن هنالك معارضة بين هذا التعبير وبين العبارات القرآنية الأخرى التي تنفي النسيان عن الله عز وجل .

وقد تكرر هذا الأسلوب البليغ في آيات أخرى من القرآن الكريم :

« ومكروا ومكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين » (١)

« يخادعون الله وهو خادعهم » (٢)

« وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها » (٣) .

« قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزيء بهم» (٤)

والمعنى : أن الله تبارك وتعالى جازاهم على مكرهم ، وعلى خداعهم ، وعلى استهزائهم الجزاء الوفاق ، من قبيل المشاكلة والمقابلة ــ كما أسلفنا ــ أو من قبيل إطلاق السبب ، وكذلك النسيان ، ولأن من نسي شيئاً تركه ، واستعمال النسيان في الترك مجاز علاقته السببية . وقد جاء القرآن الكريم صريحاً بإطلاق (النسيان) وإرادة الترك في قوله عز وجل :

---

١ ــ سورة آل عمران/٥٤
٢ ــ سورة النساء/١٤٢
٣ ــ سورة الشورى/٤٠
٤ ــ سورة البقرة/١٤و١٥

« ولا تنسوا الفضل بينكم »(١)

أما اطلاق «سيئة » على جزاء السيئة فهو أيضاً من باب المشاكلة . .

لأنه عبر عن العقوبة العادلة على السيئة بنفس اللفظة ، لأنها جزاء في مقابل عملٍ مثله . . وهو في حقيقة الأمر والواقع ليس ليس سيئةً وإنما هو حق وعدل .

التدرج في تحريم الخمر

وذكر الشيخ قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقا حسنا »(٢)

وعقب عليها بقوله : إن هذه الآية يفهم منها أن السكر المتخذ من ثمرات النخيل أو الأعناب لا بأس به لأن الله امتّن به على عباده وقد حرم سبحانه الخمر بقوله :

« رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (٣)

والجواب ظاهر وهو أن آية التحريم ناسخة لقوله تتخذون منه سكراً . . ونسخها هو التحقيق خلافاً لما يزعمه كثير من الأصوليين . . الخ . .

---

١ ـ البقرة /٢٣٧/ .
٢ ـ النحل /٦٧/ .
٣ ـ المائدة /٩٠/ .

● **قلت** : ان الحق والفهم الصحيح مع الأصوليين الذين قالوا بعدم النسخ للآية الأولى . . وقد فات الشيخ الشنقيطي أن تحريم الخمر – كتحريم الربا – جاء في القرآن متدرجاً على أربع مراحل .

فقد جاءت الآية الأولى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا . . »

تفارق أو تفرق بين (السكر) و (الرزق الحسن) مكتفية بالإشارة المنبهة إلى أن السكر ليس كالرزق الحسن ، وقد وصف الرزق بأنه حسن لتأكيد المفارقة أو التفريق بين الأمرين على قاعدة مفهوم المخالفة .

وجاءت الآية الثانية :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »(١)

تؤكد أن إثم الخمر والميسر كبير وإن كان الناس ينتفعون بهما انتفاعاً مادياً من حيث المتاجرة ببيع الخمر ، والكسب من القمار .. ولكن الإثم فيهما أكبر من الانتفاع المالي وهي إشارة أخرى أقوى من الأولى إلى أثر الخمر السيء .

---

١ ـ البقرة /٢١٩/ .

وجاءت الآية الثالثة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون . . »(١)

تحرم الخمر في أوقات الصلاة ، لئلا تضطرب وتختل عقول المصلين أثناء صلاتهم ، فتتعثر ألسنتهم بكلام مخالف لشروط العبادة التي يؤدونها ، أو يحدث منهم تصرف أو سلوك يناقض واجب الخشوع والخضوع ، والتوجه إلى الله سبحانه أثناء الصلاة وقد ذكر المفسرون أن نزول هذه الآية كان بسبب ما حدث فعلاً من اختلال عقلي وسلوكي لبعض المصلين ، فكان هذا تدرجاً ثالثاً بتحريم الخمر في أوقات الصلاة تمهيداً لتحريمها نهائياً في جميع الأوقات .

ثم جاءت المرحلة الرابعة بعد أن عرف المسلمون أن الخمر ليست رزقاً حسَناً ، وأن إثمها أكبر من نفعها المالي الرخيص الفاني ، وأنها تحدث خللاً واضطراباً عقلياً وسلوكياً في العبادة . .

لقد جاءت هذه المرحلة القاطعة الفاصلة في أمر الخمر استجابةً لدعوة عمر بن الخطاب رضي الله عنه – كما يقول الباحثون في أسباب النزول – حين ضرع إلى ربه تبارك وتعالى قائلاً : « اللهم أنزل لنا في الخمر بياناً شافياً » – فنزل قوله عز وجل :

---

١ – النساء /٤٣/ .

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .(١)

وفور نزول هاتين الأيتين الكريمتين بتحريم الخمر صاح عمر رضي الله عنه : « انتهينا يارب . . انتهينا يارب . . » وسارع المسلمون إلى إراقة أوعية الخمر من أبواب دورهم ونوافذها حتّى سالت سكك المدينة بها . .

● ● ●

وهكذا نرى أن القول بنسخ الآية الأولى غير وارد ، وإلا لانسحب على الآيتين الثانية والثالثة أيضاً ، وإنما هو (التدرج) في التشريع القرآني ، والإسلامي بصفة عامة .

ومن ناحية لغوية وبيانية لو تأملنا الآية الأولى لوجدناها تتحدث عن (واقع) الناس في الاستفادة من ثمرات النخيل والأعناب — باتخاذهم منها طعاماً حلالاً وبصناعتهم منها خمراً يسكرون بها ، ولكنها لا تغفل أثناء عرض هذا الواقع الإنساني أن تنبه المسلمين بالتفريق بين الأكل الحلال — وهو ما عبر عنه القرآن بالرزق الحسن — من التمر والعنب — وبين صناعة الخمر منهما . .

وهي — بهذا الأسلوب الإخباري — لا يجوز القول بنسخها لأنه أمر واقع ، وحقيقة قائمة إذ أن ثمرات النخيل والأعناب صالحة

---

١ ـ المائدة /٩٠ ، ٩١ .

أبداً لاتخاذها طعاماً حلالاً ، ولاتخاذها أيضاً شراباً حراماً بعد تخميرها .

التذكير مطلوب وإن لم ينفع

وأورد الشيخ هذه الآية :

« **فذكِّر إن نفعت الذكرى** »(١)

وعقب عليها بقوله : يفهم منها أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه بدليل (ان) الشرطية ، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على الأمر للتذكير مطلقاً ! !

● **قلت** : لقد شغل الشيخ صفحتين من المجلة بكلام طويل حول ما توهم من اضطراب بين الآيات . . أو بين الأمر بالتذكير مطلقاً والتذكير عند مظنة نفعه . .

مع أن الأمر واضح جداً وقد أسلفنا القول : بأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فلو تدبر الشيخ قوله عز وجل :

« **فذكِّر إن نفعت الذكرى** »

مع قوله :

« **وذكِّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين** »(٢)

لتبين له أن الثانية تفسر الأولى . والرسول بوجه عام مطالب

---

١ ــ الأعلى /٩/ .
٢ ــ الذاريات /٥٥/ .

بالتذكير والبلاغ ، ولا عليه ممن يعرض أو يتولى كما تحدثت عن ذلك آيات عديدة في كتاب الله .

ومن ناحية لغوية وبيانية : (إن) لا تكون شرطية دائماً ، ويجوز أن تكون بمعنى (قد) والأمثلة على ذلك من القرآن نفسه :

« وإنْ كادوا ليفتنونك »(١) « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا »(٢)

أو يقال : ان الشرط هنا ليس على مفهومه كقوله عز وجل :

« ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إنْ أردن تحصنا »(٣) .

● ● ●

هدى الدلالة وهدى التوفيق

وعلق الشيخ على قوله تبارك وتعالى :

« إنَّ علينا للهدى »(٤)

بقوله : إنها تدل على التزام الله بالهدى للخلق مع أنه جاءت آيات كثيرة تدل على عدم هداه لبعض الناس كقوله :

« والله لا يهدي القوم الظالمين »(٥)

« والله لا يهدي القوم الفاسقين »(٦)

---

١ ـ الاسراء /٧٣/ .
٢ ـ الفرقان /٤٢/ .
٣ ـ النور /٣٣/ .
٤ ـ الليل /١٢/ .
٥ ـ البقرة /٢٥٨/ .
٦ ـ المائدة /١٠٨/ .

« كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم »(١)

والجواب : هو أن الهدى يستعمل خاصاً وعاماً فالمثبت العام والمنفي الخاص . .

● **قلت** : إن القول الفصل في ذلك أن آية :

« إن علينا للهدى »

معناها أن علينا ارسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وبيان الهدى من الضلال . وهذا ما يؤكده القرآن في آيات كثيرة ، أما قوله :

« والله لا يهدي القوم الظالمين » ، « والله لا يهدي القوم الفاسقين »

وأمثالهما . . فالهدى هنا هو إلقاء الإيمان في قلوبهم ، والأول بيان الطريقيْن ، وهداية النجدين : طريق الخير وطريق الشر ، فاختار هؤلاء الكفرة والظلمة والفسقة طريق الضلال .

ويوضح هذا الفرق بين المراديْن المختلفين لمعنى (الهدى) قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم »(٢)

وقوله :

« إنك لا تهدي من أحببت . . »(٣)

---

١ ـ آل عمران /٨٦/ .
٢ ـ الشورى /٥٢/ .
٣ ـ القصص /٥٦/ .

فالأول بيان طريقيْ الخير والشر ، والثاني إلقاء الإيمان في القلب ، وهذا ليس له .

جواز إضافة الشيء إلى نفسه

ويذكر الشيخ قوله تعالى :

« ومكرَ السّيء . . »(١)

ثم يقول إنه يدل على أن المكر هنا غير السيء أضيف إلى السيء للزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ، وقوله تعالى :

« ولا يَحيق المكر السَّيء إلا بأهله »(٢)

يدل على أن المراد بالمكر هنا هو السيء بعينه لا شيء آخر فالتنافي بين التركيب الإضافي ، والتركيب التقييدي ظاهر ! !

وبعد ذلك – أي بعد قول الشيخ الشنقيطي بلزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ، وأن التنافي بين التركيبتين ظاهر – يقول الشيخ : والذي يظهر أن التحقيق جواز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلفت الألفاظ – ثم يقول إنه أسلوب من أساليب العربية بدليل كثرة وروده كقوله تعالى :

« شهر رمضان »(٣)

١ – فاطر /٤٣/ .
٢ – فاطر /٤٣/ .
٣ – البقرة /١٨٥/ .

والشهر هو رمضان وقوله :

« **من حبل الوريد** »(١)

والحبل هو الوريد . وقد أورد الشيخ من رجز ابن مالك – في الخلاصة – ومن شعر عنترة ما يثبت جواز إضافة الشيء إلى نفسه ويبطل قوله السابق « لزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه » . . الخ

● **قلت** : إذن فلماذا يوهم الشيخ وجود اضطراب في آيات الكتاب إذا كان هذا الأسلوب معروفاً في كلام العرب وقد تعدد مجيئه في القرآن نفسه ؟

ومن ناحية أخرى نرى أن قوله :

« **ومكر السيء . .** »

ليس من قبيل إضافة الشيء إلى نفسه كقوله :

« **شهر رمضان** » ، « **وحبل الوريد** »

وإنما هو من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته . . ومن أمثلته في الحديث النبوي : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا) .

جواز التأكيد للمقرر

ويورد الشيخ قوله عز وجل :

« **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** »(٢)

---

١ – ق /١٦/ .
٢ – التين /٤/ .

ويقول : انها توهم أن الإنسان ينكر أن ربه خلقه ، لما تقرر في فن المعاني من أن خالي الذهن من التّردد والانكار لا يؤكد له الكلام . . والمتّردد يحسن التوكيد له بمؤكد واحد ، والمنْكر يؤكد له بحسب إنكاره . والله تعالى في هذه الآية أكد إخباره بخلق الإنسان في أحسن تقويم بأربعة أقسام – أي بالتين ، والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين – واللام و (بقد) فهي ستة تأكيدات . وهذا التوكيد يوهم أن الإنسان منكر أن ربه خلقه . وقد جاءت آية أخرى صريحة في أن الكفار يقرون بأن الله هو خالقهم وهي قوله تعالى :

« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله »(١) .

وبعد ذلك – أي بعد أن قال الشيخ أن فن المعاني يمنع التوكيد لخالي الذهن من التّردد والإنكار – قال : ان علماء البلاغة أجازوا التوكيد للمقر إذا ظهرت عليه أمارة الإنكار ، وضرب لذلك مثلا قول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رمحه ان بني عمك فيهم رماح

فشقيق لا ينكر أن في بني عمه رماحاً ، ولكنه لما جاء عارضاً رمحه كان ذلك امارة لإنكاره فأكد له الخبر .. الخ ..

● **قلت** : وإذن لماذا يوهم الشيخ وجود اضطراب – هنا كالذي سبق في الفقرة الماضية – في آيات الكتاب ؟ ويقول أولا :

---

١ ـ الزخـرف /٨٧/ .

ان فن المعاني يمنع التوكيد إلا للمنكر – ثم يقول ثانياً : ان علماء البلاغة أجازوا التوكيد لمن ظهرت عليه أمارة الإنكار وان كان مقراً ابتداءً ، ويضرب المثل بقول الشاعر . ؟ .

أليس ذلك افتعالاً للاضطراب والاشكال في آيات القرآن الكريم . . ثم محاولة دفعه بما هو واضح ومفهوم ومعلوم بالضرورة من قواعد اللغة ومباديء البلاغة ، ومجازات الكلام العربي ؟

ثم **نسأل** : هل فن المعاني سابق على نزول القرآن ، أم القرآن سابق على كل ما وضع من قواعد النحو والصرف والبلاغة ؟ وهل يقاس القرآن عليها أم تقاس هي على القرآن ؟ ولماذا نتوهم الاضطراب في آيات الكتاب ، ونوهمه للناس ، ثم نستشهد بقول شاعرٍ على دفع الاضطراب الموهوم والاشكال المزعوم ؟

● ● ●

على أن القسَم في القرآن – قد تكرر في مواضع كثيرة منه دون أن يكون هناك حالة إنكار أو تردد أو حتّى امارة على الانكار والتردد – من ذلك قوله تعالى :

- **« والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى . . . »(١)**
- **« والسماء ذات الحبك : إنكم لفي قول مختلف . . »(٢)**
- **« والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس لمّا عليها حافظ . . »(٣)**

---

١ – الليل /١–٤/ .
٢ – الذاريات /٧ ، ٨/ .
٣ – الطارق /١–٤/ .

● **« والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . »** إلخ السورة (١)

هذا قليل من كثير مما ورد في القرآن الكريم من قسَم للتوكيد .. وليس هناك حالة إنكار أو تردد ، أو أمارة على إنكار أو تردد حول المقسم عليه في هذه الآيات : من اختلاف مسعى الناس ، أو اختلاف أقوالهم وعقائدهم ، أو وجود حافظ على كل نفس ، أو خُسر الإنسان غير المؤمن وغير الصالح .

● ● ●

وإذن فليس ضرورياً أن لا يأتي القسم – في القرآن–بل في كلام الناس جميعاً فصحاء وغير فصحاء إلا إذا كانت هناك حالة إنكار أو تردد ، وبالتالي : لا يجوز أن نتوهم أو نفتعل الاضطراب والإشكال في آيات القرآن الكريم . . الذي نزل بلسان عربي مبين . والذي لم تستطع العرب الأوائل الذين أنزل في عهدهم ، وكانوا خصماء ألداء له ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يقولوا إن فيه اضطراباً أو إشكالا . . بل وصفوه بالبلاغة الساحرة ، ولم يزيدوا – لعجزهم عن اتهامه بالاضطراب والاشكال – على أن اتهموا رسوله بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن ، وقالوا عن القرآن : إنه أساطير الأولين – أي حكاياتهم وأخبارهم وقصصهم – ولم يستطيعوا أن يزعموا : أن هناك تناقضاً بين ألفاظه ، أو اختلافاً بين معانيه ، أو مخالفة لما تعودوه من قواعد اللغة ومباديء البلاغة .

---

١ – سورة العصر /١–٣/ .

لقد تحدى القرآن قريشاً ــ وهم فرسان البلاغة والفصاحة ــ تحداهم بصدق أخباره، وصحة معانيه، وسلامة نظْمه، واستقامة أسلوبه ، فعجزوا . . ووقف الوليد بن المغيرة ــ وهو الخبير بضروب الكلام شعراً ونثراً ــ يعترف بأن (للقرآن حلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمرٌ ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما دونه) .

ويسمع أعرابي يقرأ قوله عز وجل :

« **فاصدع بما تؤمر . وأعرض عن المشركين** »(١)

فتأخذه روعة القرآن ويسجد ثم يقول : انما سجــدت لفصاحته !

● ● ●

شهادة الكافر على نفسه

وأورد الشيخ قوله تعالى :

« **إنَّ الإنسان لربه لكنود ، وإنَّه على ذلك لشهيد . .** »(٢)

وقال : إنها تدل على أن الإنسان شاهد على كنود نفسه أي مبالغته في الكفر ، وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك هي قوله تعالى :

« **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »(٣)

---

١ ــ الحجر /٩٤/ .
٢ ــ العاديات /٦ ، ٧/ .
٣ ــ الكهف /١٠٤/ .

ثم ذكر وجوهاً ثلاثة للجواب على ما توهم من اضطراب بين الآيتين كان الوجه الثاني منها هو الصواب لأنه ملائم للمعاني الواردة فيهما . . وهو أن شهادة الإنسان الكافر على نفسه بالكفر إنما تكون يوم القيامة .

● **قلت** : هذا هو الحق الواضح من مقاصد الآيتين اللتين توهم الشيخ أن بينهما اختلافاً لأن الآية الثانية :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »

صريحة في أن ذلك واقع في الدنيا فهي بجملتها تؤكد ذلك . أما الآية :

« وإنّه على ذلك لشهيد »

فتفسرها آيات أخرى مماثلة كقوله عز وجل :

« وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (١) **« فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير »**(٢)

والقرآن نفسه في آيات كثيرة يصور واقع الكفار والعصاة في الدنيا : بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، وأنهم يرون أنفسهم مهتدين ، وأنهم يحسنون صنعاً ، وأن القرآن – أو الإسلام – لو كان خيراً ما سبقهم إليه المسلمون ، وأنهم يضحكون من أصحاب الرسول :

---

١ ــ الانعام /١١/ .
٢ ــ الملك /١١/ .

« وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون » (١) .

وفي المقابل يصور أيضاً موقفهم في الآخرة من اعترافهم بكفرهم وضلالهم ، وشهادتهم على أنفسهم بأخطائهم وأسوائهم ، وندمهم على ما فرطوا في جنب الله ، وأسفهم على اتخاذهم الشركاء والأولياء والشفعاء من دونه ، وتمنيهم أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا وليعملوا صالحاً . . الخ . .

والقرآن واضح وصريح ، ورائع وبليغ في تصوير موقفي الكفار في دنياهم وأخراهم . . وضاحةٌ وصراحةٌ لا مجال معهما لتوهم الاختلاف أو التناقض أو الاضطراب في آيات الكتاب .

● ● ●

وبعد . . فإني لم أستوف التعقيب على كل ما كتبه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي تحت عنوان (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في مجلة الجامعة الإسلامية ، وإنما اكتفيت بتقديم نماذج محدودة ومعدودة من توهم الشيخ الاختلاف والتناقض بين بعض ألفاظ القرآن ومعانيه ، ومحاولته دفعهما بما هو موجود في الآيات نفسها ، أو بما هو معروف ومعلوم من قواعد اللغة العربية ، ومباديء بلاغتها وكلام العرب الفصحاء من نثر وشعر .

---

١ ــ المطففين /٣٠ـ٣٢/ .

ذلك أن أسلوب القرآن وتراكيبه هما الأساس قبلم كلا العرب من نثر وشعر لأنه ـ كما أسلفنا القول مراراً ـ الذروة العليا في الفصاحة والبلاغة . وعلوم العربية وغيرها تأخذ عنه وتقتبس منه ـ كما يقول الإمام الزركشي في (البرهان ج ١ / ص ٧) «كل علم من العلوم منتزع من القرآن . وإلا فليس له برهان » .

ولقد كنت أود أن يكون الشيخ ـ رحمه الله ـ قد وجد أمامه زعمات ـ لأشخاصٍ معينين معادين للإسلام والقرآن أو جاهلين بقواعد اللغة العربية ومباديء بلاغتها ـ زعماتٍ عن اضطرابٍ أو أشكالٍ في آيات القرآن فردً عليهم، وأوضح وأوضح لهم ما غمض عليهم، أوكذَّب ما افتروه على القرآن - إذن لكان له عذر بل كان له شكر على دفاعه عن القرآن أما أن يتوهم هو أو يفتعل الاضطراب في آيات الكتاب ـ وبالتالي يوهمه للمعادين أو الجاهلين . . ثم يحاول دفعه ؛ فهذا ما استنكرته، وما خفت عواقبه السّيِّئة على عقول قراء هذه المقالات من الشباب والطلاب ، وضعاف الإيمان ، وقليلي البحث في علوم القرآن ومجالات فهمه وتفسيره .

وفي الختام أسأل الله لي وله ولسائر المسلمين العفو والمغفرة ، وحسن التوفيق .(١)

---

١ ـ كتب هذا التعقيب في حياة الشيخ الشنقيطي وأطلع عليه رحمه الله .



الفصل الثالث

افتعال المشكلات في آيات القرآن



- ١ -

أصدرت وزارة الأوقاف والشئون الدينية في الكويت – عام ١٣٨٧هـ – كتاباً منسوباً لسلطان العلماء العز بن عبد السلام تحت عنوان (الفوائد في مشكل القرآن) قام بتحقيقه الدكتور سيد رضوان على الندوى .

وأنا إنما قلت : « منسوباً لسلطان العلماء العز بن عبد السلام » لأني لا أستطيع أن أصدق أن يكون هذا الكتاب من تأليف هذا العالم الجليل ، فقد أنكرت – في هذا الكتاب – أمرين :

● **الأول** : زعم مشكلات في القرآن ، أو توهمها ثم التساؤل : لم قال كذا ؟ أو لماذا لم يقل كذا بدلاً من كذا ؟ أو هذا لا يليق ! أو لماذا خولف الأصل ؟ الخ . . وفي مواضع كثيرة لا يجيب على الإشكال ! !

● **الثاني** : أنه أخضع القرآن لقواعد النحو والصرف والبلاغة مع أن هذه القواعد قد وضعت بعد نزول القرآن وعلى أساسه باعتبار أنه الذروة في البلاغة والفصاحة ، وأنه القدوة للبلغاء والفصحاء .

ولذلك أرجح أن الكتاب إما أن يكون متقوّلا على العز ابن عبد السلام ، وإما أن يكون أحد تلامذته رواه عنه محرّفاً بنقصٍ وزيادة .

* * *

يقول الخطابي ـ أحد الباحثين في علوم القرآن . إنما يقوم الكلام على ثلاثة : لفظ حاصل، ومعنى له قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا ما تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتّى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه . ولا ترى نظماً أحسن من تأليفه ، وأشد تشاكلاً من نظمه » .

ويقول الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي ، الأستاذ بكلية اللغة العربية بالرياض ـ : لمّا سمع القرآنَ فصحاءُ العرب ، وأرباب البلاغة والبيان سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع (طه) وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر حين سمع (فصلت) ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة خفية ـ ما كل ذلك إلا دليل الإعجاز القرآني الذي يتمثل في صدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وجمال النظم ، وإحكام البيان ، وروعة التصوير ـ ان بلاغة القرآن سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالي الأعوام ، وما أصدق قولة الوليد بن المغيرة عن القرآن حين سمعه من محمد صلى الله عليه وسلم : « إن لقوله لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » .

● **قلت** : لو كانت في القرآن مشكلات لما كان لفصاحته

وبلاغته هذا التأثير المعجز على عقول المكابرين وقلوبهم ، حتّى قالوا عنه ما قالوا ، وحتّى آمن بعضهم به وبرسوله بعد سماعه مباشرة .

* * *

ونضرب الآن الأمثال على هذه المشكلات المتوهّمة ؛ وما أجيب به عليها — معقّبين بما يفتح الله به ويُلْهِم :

في ص ٢٢ قوله عز وجل :

« وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء »(١)

يقول العز : فيه سؤالان لأن القائل : (آمنوا) إما أن يكون مسلماً أو كافراً فإن كان مسلماً فكيف يجاوب هذا الجواب مع أن المنافقين يسترون أنفسهم ، وإن كان كافراً فكيف يصح من الكفار أن يأمروا بالإيمان — والجواب : ان القائل مؤمن لكنه من القرابة ، فلا يستتر منه .

● **قلت** : إن المعنى واضح لا يحتاج إلى مثل هذا التساؤل ، وليس في التعبير القرآني مشكل ، فالمقصود هو تصوير حالة المنافقين إذ يرون أنفسهم العقلاء وغيرهم من المؤمنين المعبر عنهم في الآية (بالناس) هم السفهاء — كما سبق تصويرهم في الآية السابقة بأنهم يزعمون أنهم مصلحون في الأرض وهذه هي سجية الطغاة المفسدين في كل عصر ، تصديقاً لقوله عز وجل :

---

١ ـ البقرة /١٣/ .

« وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله »(١)

وقوله :

« أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً »(٢) .

* * *

وفي ص ٤٩ – قوله عز وجل :

« فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتّى تنكِح زوجاً غيره » (٣)

يقول العز : هذه الآية ليست مرادة – وقد خولف ظاهرها – فإنها لا تحل له بمجرد النكاح للغير ، بل حتّى يطلقها ، وتستوفي عدتّها ، ويعقد عليها الأول .

● **قلت** : لا مشكل في الآية ، ففي تمامها البيان الكافي ، وهو : (. . فإن طلقها – أي الزوج الثاني – فلا جناح عليهما أن يترَاجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله) أي إن طلقها الثاني حلت الرجعة إلى الأول .

ثم إنّ حرمة المطلقة بعد زواجها ثانية من البداهات ومن المسلّمات القرآنية المقررات أيضاً في قوله عز وجل عن المحرمات :

« والمحْصنَات من النِّساء »(٤)

---

١ – غافر /٣٧/ .
٢ – فاطر /٨/ .
٣ – البقرة /٢٣٠/ .
٤ – النساء /٢٤/ .

فالمرأة المتزوجة حرام على غير زوجها سواء أكان هذا الغير زوجاً سابقاً أو خاطباً جديداً .

وكيف يقال : ان هذه الآية ليست مرادة ؟ !

* * *

وفي ص ٥١ ــ قوله عز وجل :

« وعلى المولود له رزقهن »(١)

يقول العز : لم لا يقال : وعلى الوالد ؟ وهو أخص فالجواب : ان الولد ينفع أباه أكثر مما ينفع أمه ، لأن الولد يحمل أباه في المحافل ، ويدافع عنه في الحروب ، غير ذلك مما لا يحصل للأم فأراد سبحانه أن يبينه « بالمولود له » على العلة التي لأجلها اختصت نفقة الولد بأبيه دون أمه الخ .

● **قلت** : أن الأبلغ والأفصح أن يقال : إنما قصد القرآن إلى التعبير (بالمولود له) بدلاً من الوالد لأن الأب على الحقيقة وليس ه الذي يلد ، وإنما هي الأم ، وإن ورد في القرآن نفسه التعبير : (بالوالدين) و (بالوالد) في قوله عز وجل :

« وبالوالدين إحسانا (٢)

وقوله :

« ووالد وما ولد» (٣)

---

١ ــ البقــرة /٢٣٣/ .
٢ ــ البقــرة /٨٣/ .
٣ ــ سورة البــلد /٣/ .

تغليباً لوصف الأم التي هي الوالدة على الحقيقة .

ثم في التعبير (بالمولود له) تنبيه للرجل إلى أنه المسئول عن حمل المرأة وولادتها ، لأنه السبب في ذلك ، فهو إذن المسئول أيضاً عن الإنفاق عليها وعلى مولودها منه .

والرجل – عموماً – هو المكلف بالإنفاق على كل حال أباً كان أم زوجاً أم ابناً . . على أولاده وزوجته ووالديه بصرف النظر عن كونه أنفع لأبيه أو أمه . مع أن الملاحظ في التعامل الأسري : عطف الأبناء على أمهاتهم ، وعطف البنات على آبائهن ، وقد أوصاهم القرآن ببرهما معاً ، ولكن السنّة النبوية فضّلت الأم ، ودعت إلى مضاعفة برها ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

– في سورة النساء –:

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » .(١)

* * *

وفي ص ٥٣ – قوله عز وجل :

« أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي »(٢)

يقول العز : والله تعالى عالم بإيمانه ، فما فائدة الاستفهام ؟ وسكت الشيخ عن الإجابة ، أو سقط الجواب من نساخ المخطوطات التي نقل المحقق عنها .

---

١ – سورة النساء /١١/ .

٢ – سورة البقـرة /٢٦٠/ .

● **قلت** : ان الحوار هنا بين إبراهيم عليه السلام وربه تبارك وتعالى أساسه الرغبة من ابراهيم في معرفة الكيفية التي يحيي الله بها الموتى ، فأمره عز وجل أن يأخذ أربعة من الطير ، ثم يذبحها ويخلط عظامها ولحومها ، ثم يجزئها ويضع كل جزء منهن على جبل ، ويدعوهن فيلبين دعاءه وينهضن طائراتٍ بقدرة الله وحكمته .

وليس في القصة إشكال ، وإنما هي قضية استزادة من إيمان ويقين ، بل هي عملية تربية إلهية لهذا النبي الكريم ، كما سبق مثلها لموسى عليه السلام عندما طلب إلى ربه عز وجل أن ينظر إلى الذات الإلهية :

« ولمَّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربُّه قال ربِّ أرِني أنظر إليك قال لن تراني»(١) .

وقد تكررت هذه العملية التربوية لإبراهيم في مواقفه من الكواكب والقمر والشمس في قوله عز وجل :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي » .(٢)

فليست المسألة سؤالاً وجواباً ، أو استفهاماً من الخالق عن إيمان إبراهيم وهو العالم به ، وإنما هي قضية تربيةٍ وتعليم ، وإظهارٍ لقدرة الله على الإماتة والإحياء .

* * *

---

١ ـ سورة الأعراف /١٤٣/ .
٢ ـ سورة الأنعام /٧٦/ .

وفي ص ٥٨ – قوله عز وجل :

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم . . » (١)

يقول العز : فيه سؤال لم قال : إلا أن تكون تجارة ؟ فإن أسباب الحِل أعم من التجارة ، والكسب بالصناعة والزراعة وغير ذلك أكثر ! ! والجواب : أن الغالب على العرب التجارة دون غيرها فخصها بالذكر لغلبتها .

● **قلت** : لا إشكال في ذكر التجارة دون الصناعة والزراعة لأن التجارة تشمل غيرها من أسباب الكسب الأخرى ، فالصناعة تجارة ، والزراعة تجارة ، والعمل بالبدن تجارة ، لأن من يصنع أو يزرع لا يفعل ذلك لنفسه ، وإنما ليتاجر بما صنعه أو زرعه بيعاً وشراءً ، فالتجارة أعم . . والصناعة والزراعة أخص .

* * *

وفي ص ٦٧ – قوله عز وجل :

« قال لا أحب الآفلين . . »(٢)

يقول العز : مشكل غاية الإشكال . . لأن الدال على عدم آلهية الكواكب إن كان التغير ، فقد وجد قبل الأفول ، فلا معنى لاختصاصه به ، وان كان الغيبة عن البصر ، فتلزم في حق الله

---

١ – سورة النساء /٢٩/ .
٢ – سورة الأنعام /٧٦/ .

سبحانه ، وان كان كونه انتقل من كمال وهو العلو إلى نقصان فقد كان ناقصاً عند الإشراق ، وأيضاً ذلك معلوم قبل الأفول انه آفلٌ ، وانه في المشرق يساويه في المغرب — ولم يجب العز عن هذا الاشكال الذي توهمه !

● **قلت** : لقد كان لزاماً على محقق الكتاب الدكتور سيد رضوان الندوي أن لا يثبت هذا الزعم ما دام لم يجد الجواب عليه ، وكذلك في كل الاشكالات التي لم يرد جواب عليها . . لأنهـــا تثير في نفس القاريء شكاً ونقداً لألفاظ القرآن ومعانيه دون أن يجد ما يشفي صدره منها .

أو كان عليه أن يلجأ إلى بعض العلماء ليجيب عن مثل هذه الإشكالات المفتعلة ، المنسوبة إليه . . لئلا تبقى شبهاتٍ بدون كشف واستفهامات بلا أجوبة .

وفي نظري أنه ليس في التعبير القرآني إشكال . . فإبراهيم عليه السلام أراد لنفسه ولقومه — والقوم هم المقصودون كما سيأتي — طريقة وحجة للاقتناع بأن ما يتغير بين الحضور والغيبة ، أو بين الشروق والغروب أو بين البزوغ والأفول — لا يصلح أن يكون إلهاً جديراً بالعبادة والتوحيد .

لقد قلّب إبراهيم نظره في السماء . . بين الكوكب بازغاً وآفلاً ، ثم القمر بازغاً وآفلا ، ثم الشمس بازغة وآفلة ، لأنها أظهر المخلوقات وأكبرها ، ولأنها كانت فعلا معبودات لأقوام

ضالّين . . بعضهم عبد الكواكب . . وآخرون عبدوا القمر ، وبعضهم عبد الشمس .

فلما تأكد أنها لا تثبت ولا تدوم ، عرف أنها لاتصلح أن تكون أرباباً وآلهة ، ومن ثم توجه إلى الله تبارك وتعالى يدعوه أن يهديه إلى سواء السبيل ، ثم التفت إلى قومه المشركين ، عبدة الأصنام ، فقال كما حكى الله عنه :

« إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .(١)

ومن هنا جاء قوله تبارك وتعالى في بداية هذا المقطع من سورة الأنعام :

« وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً . . » . (٢)

كما جاء ختامه :

« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه »(٣)

أي أن هذا الأسلوب التربوي في النظر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض . . هو الذي أوصل إبراهيم إلى الاعتقاد بأنه لا إله إلا الله ، وأن الكوكب والقمر والشمس وغيرها من

---

١ ـ سورة الانعام /٧٨ ، ٧٩/ .
٢ ـ سورة الانعام /٧٥ ، ٧٦/ .
٣ ـ الانعام /٨٣/ .

المعبودات الباطلة ، التي اتخذها الناس آلهة ليست إلا مخلوقات لله عز وجل ، الإله الحق الجدير بالعبادة والتوحيد .

أما كون الأفول أو النقصان موجودين أصلا أو ملاحظين من قبل البزوغ — فليس مشكلاً . . إذ أن العبرة بما ابتدأ به إبراهيم نظره وتأمله من بزوغ الكوكب ثم افوله ، ثم بزوغ القمر وأفوله ، ثم بزوغ الشمس وأفولها . وهو لم يبدأ التأمل والنظر في غياب الكوكب أو غيبة القمر أو غياب الشمس، حتّى يقال إن ذلك معلوم له قبل الأفول .

كما لا تقاس غيبة الكوكب والقمر والشمس . . باحتجاب الله عز وجل عن أبصار الناس كما أشار العز إلى ذلك . . فذات الخالق غير ذات المخلوق .

● ● ●

وفي ص ٦٨ — قوله عز وجل :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا »(١)

يقول العز : هذا استفهام بمعنى النفي ، وهو مشكل لأن المشرك أظلم ممن افترى على الله كذبا . . ولا يقال المشرك مفترٍ لأنه يقول : لله شريك وهذا كذب على الله ، لأن الشرك معنى في القلب ، والكذب من عوارض الألفاظ ، وقد يشرك ولا يتلفظ فلا يكون كاذباً مع أنه مشرك !

---

١ ـ الأنعام /٩٣/ .

● **قلت** : إن المشرك كاذب ومفترٍ على الله الكذب إذ جعل له شريكاً بغير حق ، وليس الشرك معنى في القلب وحده كما يقول العز رحمه الله ، بل هو معنى في القلب أي اعتقاد — وتلفظ باللسان إذ يتوجه المشرك إلى الشريك المعبود بالدعاء والطلب وبالعبادة اللفظية ، وهو — أي الشرك — عمل بالجوارح ممثلٌ في الحركات الجسدية التعبدية ، وفيما يقدم للإله المزعوم من نذورٍ وقرابين .

فحقيقة الشرك : انه كذب قلبي ، ولفظي ، وجسدي ، وهو افتراء على الله بلا جدال — يقول العلامة الألوسي في (بلوغ الارب) عند ذكره لعبدة الأصنام في الجاهلية : (إنهم عبدوا الأصنام ، وحجوا إليها ، ونحروا لها الهدايا ، وقرّبوا القرابين ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر ، وأحلّوا وحرّموا) .

والشرك بالله ليس هو عبادة غيره بالمفهوم المعروف وحده . فقبول التحريم والتحليل من غيره من الحكام والأحبار والرهبان شرك أيضاً — كما في حديث عدي بن حاتم . والقول على الله بما لم يقل ، أو ادعاء النبوة والوحي لا يقلان ظلماً عن الشرك ، لأنها انتقاص من حق الألوهية . ولذلك جاءت الآية موضوع البحث :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ومن قال سأنْزل مثل ما أنزل الله .. » (١) .

● ● ●

---

١ — الانعام /٩٣/ .

وفي ص ١١٥ — يستشكل العز سؤال الله عز وجل لموسى عليه السلام :

« **وما تلك بيمينك يا موسى ؟** »(٢)

مع أن الله يعلم ما بيمينه ! كما يستشكل أن يقول موسى : (هي عصاي) ولماذا لم يقل : (هي عصا) بدون إضافة إليه ؟ ويستشكل كذلك قول موسى :

« **واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي** »(٣)

لماذا قال : (أخي) مع أن الله يعلم انه أخوه — ثم يقول : الجواب على هذا الإشكال : ان ذلك تكثيرٌ لسبب الانس وتشريفٌ لموسى بالمناجاة !

● **قلت** : لو ذهبنا نتعقب كل ما ورد في القرآن الكريم من حوار أو سؤال وجواب بين الخالق عز وجل وبين رسله وأنبيائه ، أو بينه وبين الملائكة ، أو بينه وبين بعض مخلوقاته الأخرى من أشياء وأشخاص وأمم — لكان القرآن كله مشكلاً . . ومعاذ الله أن يكون ، فهو أحسن الحديث ، وأحسن القصص ، وهو الكتاب العربي المبين ، الذي يسره الله للذكر وللتفكر والتدبر ، ثم للعمل به .

---

١ — سورة طـه /١٧/ .
٢ — طـه /٢٩ ، ٣٠/ .

فالله عز وجل ليس في حاجة إلى أن يسأل الرسل : (ماذا أجبتم) أو يسأل الملائكة : (أنبئوني بأسماء هؤلاء) ولا أن يسأل عيسى عليه السلام :

« أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله »(١)

وغير ذلك من الحوار والسؤال والجواب – الذي جاء في في القرآن أسلوباً بلاغياً رائعاً ماتعاً للتقرير أو الانكار أو التصوير .

وهو أسلوب عرفه العرب وجمّلوا به أشعارهم وخطبهم . ولولا ذلك ماأعجزهم فيما أعجزهم القرآن ولا بهرهم ، ولا فهموه ولا أثنوا عليه .

● ● ●

وفي ص ١٢٣ – قوله عز وجل :

« لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ لفسدتا »(٢)

يقول العز : فيه اشكال لأنه ذكره بعد قوله :

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون »(٣)

ليبطل قولهم ، وهذا لا يبطله لأن الملازمة بين الفساد والإله الثاني إنما تصدق إذا كان الإله الثاني تاماً حتّى يلزم التمانع ، وهم

---

١ – سورة المائدة /١١٦/ .
٢ – الأنبياء /٢٢/ .
٣ – الابياء /٢١/ .

لم يدعوا إلا ربوبية أصنام يقولون : إنها تقربهم إلى الله زلفى ، فما قالوا به لا تبطله الآية ، وما تبطله الآية لم يقولوا به .

● **قلت**: لا يلزم أن تكون الآلهة المزعومة تامة ، لكي يكون إبطال الزعم وارداً بقوله عز وجل :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

فالمشركون على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ، بما فيهم النصارى الذين زعموا أن المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزيرٌ ابن الله ، وغيرهم ممن عبدوا الأصنام والكواكب والشمس والقمر ، وقد قص القرآن علينا قصصهم جميعاً . هؤلاء اعتقدوا في معبوداتهم أو آلهتهم : الإضرار والنفع ، والرزق والمنع ، والأمراض والشفاء ، والانجاب والإعقام ، وهو — ولا شك — اعتقاد بأنهم شركاء لله في تدبير كونه ، وتصريف شئون خلقه .

ولذلك جاء القرآن — في مواضع كثيرة منه — يبطل هذه المزاعم ، ويفضح عجز هذه الآلهة المزعومة ، ويؤكد خسران من يلجأ إليها ، ويعتمد عليها .

وهذه الآية :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

هي آية الآيات في نفي الشرك وإبطال الشريك لله عز وجل ، لأنها تخاطب عقول المشركين بعد أن خاطبت آيات أخرى عواطفهم ووجداناتهم فقالت : ان هؤلاء الذين تدعون من دون الله :

« عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم »(١)

وقالت لهم أيضاً :

« لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق »(٢)

وذكّرتهم بأنهم إذا كانوا في الفلك ، وكادت تغرق بهم

« ضل من تدعون إلاّ إياه »(٣)

إلى آخر ما جاء في القرآن من قصص وحوار في خطاب عواطف المشركين ووجداناتهم .

أما هنا في هذه الآية ، فالقرآن يخاطب (عقول) المشركين .. فالحكم – مثلا – لا يستقيم لرجلين يريدان أن يحكما بلداً أو حتّى قرية صغيرة ، ورجلان لا يمكن أن يقودا سفينة ، ورجلان لا يمكن أن يديرا بيتاً وزوجةً وأطفالاً . فلا بد من توجيه المسئولية وتركيزها في يد رئيسٍ واحد ، أو أميرٍ واحد ، أو قائدٍ واحد ، أو زوجٍ واحد .

• وإذا كان هذا المبدأ الإداري أو القيادي مسلماً به في شئون الناس في بيوتهم وأسرهم ، ومجتمعاتهم ومدنهم وقراهم ، وأعمالهم – فيجب أن يسلم به في خلق الخلق ، وتكوين الكون ، وتصريف ملكوت السماوات والأرض من باب أولى ، إذ أن خلق السموات والأرض أكبر من « خلق الناس » وإذا سلم الناس

١ ـ الاعراف /١٩٤/ .
٢ ـ العنكبوت /١٧/ .
٣ ـ الاسراء /٦٧/ .

بالقيادة الواحدة ، والمسئولية الواحدة في شئونهم الصغيرة ، فلماذا لا يسلمون بها في شأن الكون الأكبر ؟

وهكذا نرى الآية تبطل عقلياً كل أنواع الشرك ، بل تجعله أمراً مستحيلاً في العقل ، وإن كان واقعاً في تصرفات المشركين الذين لا يعقلون !

● ● ●

وفي ص ١٢٧ – قوله عز وجل :

« ثم محلُّها إلى البيت العتيق »(١)

يقول العز : فيه إشكال وذلك أن المغيا ها هنا إن كان الذكاة فكيف يُغَيّا بـ « إلى البيت العتيق » والجواب أن المعنى : ثم محل زكاتها إلى البيت العتيق : لأن البيت وما قاربه لا يذكيّ فيه .

وفي ص ١٤٩ – يوهم نفس الاشكال في قوله تعالى :

« وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين »(٢)

فيقول : مفهوم الآية يدل على أنه ليس ملعوناً إذا جاء يوم الدين ، فلم جيء بـــ « إلى » ؟ والجواب ان المفهوم غير مراد ، وإن « إلى » تفيد الاستمرار إلى يوم الدين . . الخ . .

● **قلت** : من المعروف في كلام العرب ، وفي أصول تفسير القرآن بصفة خاصة – أن (المغَيّا) يشمل الغاية تارة ، ولا

---

١ – الحج /٣٣/ .
٢ – ص /٧٨/ .

يشملها أخرى . والقرآن نفسه قد تضمن ذلك في آيتين منه :
الأولى :

« **فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** »(١)

فالمرافق ــ وهي الغاية ــ داخلة في الغسل . والآية الثانية :

« **ثم أتمّوا الصيام إلى الليل** »(٢)

فالليل ــ وهو الغاية ــ لا يدخل في الصيام .

وعلى ذلك فالبيت العتيق نفسه لا يدخل في محل الذكاة ، بينما يدخل يوم الدين في لعن إبليس ، وليس في الآيتين إشكال كما توهم العز ✪

● ● ●

وفي ص ١٣٠ ــ يقول العز : كيف يقال للرسل :

« **كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** »(٣)

لأن الطلب لا يتعلق إلا بمستقبل ، والرسل قد انقضى زمانهم ومضى . . الخ . . ويسأل : لماذا نصبت (أمة) في قوله :

« **وإنّ هذه أمتكم أمة واحدة** »(٤) ؟

● **قلت** : ان الطلب الذي جاء في الآية في صورة خطاب للرسل بأن يأكلوا من الطيبات ، وأن يعملوا الصالحات . . هو

---

١ ـ سورة المائدة /٦/ ·
٢ ـ البقرة /١٨٧/ ·
٣ ـ المؤمنون /٥١/ ·
٤ ـ المؤمنون /٥٢/ ·

✪ غير أن الغاية (زمانية) في آية الى الليل ·· و (مكانية) في آية الى المرافق ·· والليل لا يدخل في الصيام بينما تدخل المرافق في الغسل ·· ويوم القيامة غاية (زمانية) ·· (التحرير) ·

كناية عن أن سنة الله عز وجل قد جرت في أمر الرسل جميعاً بهذا التكليف، كما جرت سنته أيضاً أن يأمر المؤمنين بنفس التكليف كما جاء في الحديث النبوي : (إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . . الخ . .) ثم تلا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية والآية الأخرى الموجّهة للمؤمنين بألفاظٍ ومعانٍ متقاربة .

أما نصب (أمة) فلأنها حال من « أمتكّم » التي هي خبر (هذه) ومثلها قوله :

« وهذا بعلي شيخاً »(١)

فشيخ حال من (بعلي) الذي هو خبر (هذا) .

● ● ●

وفي ص ١٤٩ ــ قوله عز وجل :

« لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم . فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون »(٢)

يقول العز : فيه إشكال لأنهم إذا رأوه فكيف يأتيهم بغتة بعد ذلك ، لأن الفاء تدل على التعقيب ؟

● **قلت** : إن الفاء هنا للتفصيل بعد الإجمال ، وليست للتعقيب . وقد جاء القرآن بما يفيد ذلك في قوله :

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون »(٣)

---

١ ــ هود /٧٢/ .
٢ ــ الشعراء /٢٠١ ، ٢٠٢/ .
٣ ــ الأعراف /٤/ .

وقد تكرر ذلك في آيات أخرى :

فإتيان العذاب بغتة هو تفصيلٌ لرؤيتهم له — كما أن مجيء البأس ليلاً أو نهاراً تفصيلٌ للاهلاك .

● ● ●

وفي ص ١٤٤ — قوله عز وجل :

« فلما خَرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين »(١)

يقول العز : أن فاعل (تبينت) ليس الجن . بل الجن مبتدأ و (إن لو كانوا يعلمون) خبره إذ لولا ذلك لكان معنى الكلام : لما مات سليمان عليه السلام وخرَّ ظهر لهم أنهم لا يعلمون الغيب . وعلمهم بعدم علمهم للغيب لا يتوقف على هذا . بل المعنى : تبينت القصة . . الخ . .

● **قلت** : هذا فهم عجيب ، وتشويه لجمال التعبير القرآني أعجب . بل هو تحريف لاستقامة هذا التعبير السليم الكريم . .

فالقرآن يقول بعبارة واضحة :

«فلما قضينا عليه الموتَ ما دلَّهم على موته إلاّ دابةُ الأرض تأكل منسأته فلما خرَّ تبينَت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .(٢)

---

١ — سبأ /١٤/ .
٢ — سبأ /١٤/ .

أي أن سليمان عليه السلام عندما توفي لم تظهر وفاته للجن ، لأنه ظل جالساً على هيئته كأنه حي ، متكئاً على منسأته ، فظل الجن في أعمالهم له كعادتهم :

« يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . . »(١)

حتى إذا أتمت دابة الأرض نخر منسأته خرَّ سليمان من على عرشه ، فعرفت الجن أنه مات . . ولو أنها كانت تعلم الغيب لعلمت بوفاته قبل أن يخر ، وما لبثت في عناء أعمالها وشقائها الأليم .

وفي القصة : عبرة وعظة ، وبيان من الله للناس في عهد سليمان : وما بعده ، إلى يوم الدين : ان الجن – وهم مظنة النفع والضر عند الكثير – لا يعلمون الغيب ، وبالتالي لا يملكون نفعاً ولا ضراً .

ففاعل (تبينت) إذن هو (الجن) بلا جدال لأن السياق يدل عليه ، والمعنى المراد يؤكده ، والعبرة من القصة تقويه .

● ● ●

وفي ص ١٤٦ – قوله عز وجل :

« ولا الليل سابق النهار »(٢)

---

١ – سبأ /١٣/ .
٢ – سورة يس /٤٠/ .

يقول العز : فيه اشكال لأن الليل سابق النهار ، والليلة قبل اليوم بإجماع .

● **قلت** : إن (السبق) هنا بمعنى التجاوز . . أي لا يتجاوز الليل النهار كقوله :

« أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقــونا ســاء ما يحكمون »(١)

أي يتجاوزوا سلطاننا وقهرنا وقدرتنا وإحاطتنا بهم ومثله قوله :

« ولا يَحسَبنّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون(٢) »

أي ان كلاً من الليل والنهار لا يتجاوز مقداره المحدد له ، وفق النواميس الإلهية الثابتة . . فهذا لا ينقص من وقت هذا ، ولا الآخر يفعل ذلك .

وسياق الآية في السورة نفسها يؤكد هذا المعنى . . وهي قوله عز وجل :

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »(٣)

أي لا تجاوز ، ولا اختلال في نظام الكون !

● ● ●

---

١ ــ العنكبــوت /٤/ .
٢ ــ الأنفــال /٥٩/ .
٣ ــ يــس /٤٠/ .

وفي ص ١٤٨ – قوله عز وجل :

(**أجعل الآلهة إلهاً واحداً**) (١)

يقول العز : (جعل) لها خمسة محامل . . بمعنى التسمية ، والتصبير ، والخلق ، والالقاء ، ومقاربة الفعل ، وهي مستحيلة في هذا المكان ، فعلى أي شيء تـُحمل ثم قال : إنها بمعنى (صيـّر) وفي الكلام حذف تقديره : أجعل بدل عبادة الآلهة عبادة إلهٍ واحد ؟

* **قلت** : إن (جعل) هنا بمعنى (زعم) كقوله :

« **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً** »(٢)

أي زعموهم كذلك – وقوله :

« **وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله** »(٣)

أي زعموا وادعوا – وقوله :

« **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر . . .** »(٤)

أي زعمتم أن الأمرين متماثلان في الفضل ؟ .

● ● ●

وفي ص ١٦٦ – قوله عز وجل :

---

١ – ص /٥/ .
٢ – الزخـرف /١٩/ .
٣ – ابراهيـم /٣٠/ .
٤ – التـوبة /١٩/ .

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١)

يقول العز : إن السلف أنكروا أن يقال خليفة الله ، وقالوا لا يستخلف إلا من كان غائباً ، والله عز وجل لا يتصف بالغيبة — ولم يعقب على هذا الإشكال المزعوم أو الموهوم . !

● **قلت** : هناك آيات أخرى تؤيد معنى الاستخلاف على أنه الإنابة والتوكيل ، ولا يلزم منه أن يكون المستخلف غائباً — كقوله :

« أنفِقوا مما رزقناكم » (٢)

وقوله :

« وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »(٣)

كما أن الله عز وجل يقول :

« إني جاعل في الأرض خليفة » (٤) .

ويسري هذا المعنى على جميع الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله إلى خلقه لإبلاغ رسالاته إليهم ، ولا يعني ذلك غيبته تبارك وتعالى .

● ● ●

---

١ ـ الحديد /٧/ .
٢ ـ البقرة /٢٥٤/ .
٣ ـ النور /٣٣/ .
٤ ـ البقرة /٣٠/ .

وفي ص ١٧٢ — قوله عز وجل :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعاً »(١) .

يقول العز : العامل في اليوم الثاني فعل مضمر تقديره (أذكر) ولا يصح أن يكون بدلاً من اليوم الأول ، لأن الخوض واللعب لا يستمران إلى يوم القيامة ، بل ينقطعان بالموت ، وهو اليوم الذي يوعدون .

● **قلت** : بل اليوم الثاني هو بدلٌ من اليوم الأول . . لأنهم ماتوا على الخوض واللعب ، فهما معهم إلى يوم القيامة ، فمن مات على شيء بعث عليه ، وجوزي به بلا جدال . ولا إشكال .

وقد أسلفنا : أن الغاية لا تدخل أحياناً في المغيا — كقوله عز وجل :

« ثم أتموا الصيام إلى الليل » .

● ● ●

وفي ص ١٧٣ — قوله عز وجل :

« قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »(٢)

---

٤ — المعارج /٤٢/ .
١ — المزمل الآية ١ـ٤ .

يقول العز : فيه سؤال وهو : ان نصفه بدل من (قليلا) ولا شك أن القليل لا يصل إلى النصف ، فقد أبدل الأكثر من الأقل ، والأكثر لا يبدل من الأقل في لسان العرب ــ والجواب : أن المراد بالليل هنا الليالي بأسرها » .

● **قلت** : أنه افتعال للإشكال ، وتكلّف في الجواب ، فالصواب أن (نصفه) بدل من (الليل) لا بدل من (قليلا) . إنه بدل الليل المأمور بقيامه ، لا من المستثنى من القيام وهو القليل ، وإلا كان المعنى : نصف القليل لا نصف الليل ، وهو غير سائغ ولا مفهوم ولا معلوم . ويدل على ما قلناه الآية التي جاءت في المقطع الأخير من السورة نفسها ، وهي قوله تبارك وتعالى :

« **إنَّ ربَّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفَه وثُلثه** » .(1)

● ● ●

وفي ص ٩٠ ــ يورد قوله عز وجل :

« **أفمن يخلُق كمن لا يخلُق أفلا تذكَّرون** »(2)

ويقول : مشكل لأن القاعدة أن يكون المشبه دون المشبه به . وهو يقتضي أن يقال : « أفمن لا يخلق كمن يخلق » ؟

وفي ص ١٠٤ ــ يكرر هذا الاستشكال عند قوله عز وجل :

---

١ ـ المزمل /٢٠/ .
٢ ـ النحل /١٧/ .

« وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »(١)

ويقول : لو حملناه على رحمة الآخرة أو عليها وعلى رحمة الدنيا وقد شبهت بالتربية ، وهي أخفض رتبة من كلتيهما — فيلزم خلاف القاعدة في التشبيه .

وفي ص ١٧٠ — يعيد الاستشكال نفسه عند الآيتين :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين » (٢) « أم نجعل المتقين كالفجار » (٣) .

ويقول فيه اشكال لأن الأصل في التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى . . الخ . .

● **قلت** : إن في القرآن نفسه أمثلةً أخرى كقوله عز وجل :

« مثل نُوره كمشكاة فيها مصباح »(٤)

حتّى استأنس الشاعر العربي في تشبيه ممدوحه بمن هو أقل منه ، واعتمد على هذه الآية القرآنية في جواز ذلك :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وفي القرآن أيضاً آية أخرى :

---

١ — الاسراء /٢٤/ .
٢ — القلم : ن /٣٥/ .
٣ — ص /٢٨/ .
٤ — النور/٣٥/ .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون »(١)

فهنا شبه الأدنى بالأعلى ، على طريقة الاستنكار طبعاً .

والعكس في قوله عز وجل :

« أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً »(٢)

ومثاله :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين » ؟

وعلى ذلك فلا إشكال في الآية ، لأن القرآن قد أورد الأسلوبين : تشبيه الأدنى بالأعلى وتشبيه الأعلى بالأدنى ، وهو دليل الجواز والإعجاز .

أما التشبيه في قوله تعالى :

« كما ربياني صغيرا »

فهو للجزاء وليس للماثلة ، ومعناه على ما ربياني صغيراً .

ومثله :

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . . » (٣)

---

١ ـ الجاثية /٢١/ .
٢ ـ السجدة /١٨/ .
٣ ـ الأنفال /٥/ .

أي أن الأمر على

ما أخرجك ربك من بيتك – ولا يعني التشبيه بحال :

● ● ●

وبعد ، فمِمّا يلاحظ على المحقق الدكتور سيد رضوان : أنه وضع الهوامش جملة واحدة في ختام الكتاب ، ولو وضع تعليقاته ومراجعاته في ذيل كل صفحة لكان أسهل في الإيضاح والاستدراك بالتصويب .

وهناك في الكتاب بعض الاستشكالات المتوهمة . . تركت التعليق عليها قصداً للاختصار ، وبعداً عن الاملال . وهي من هذا الوادي . . وادي الافتعال والتوهم ، واتّهام بعض آيات القرآن بالغرابة والشذوذ .

- ٢ -

وهذا كتاب آخر عنوانه : (مشكلات القرآن ومشكلات الأحاديث) بأقلام نوابغ العلماء جمعها زكريا علي يوسف . وجاء في المقدمة قوله : « ان بعض آيات الكتاب الحكيم قد يصعب فهمهما على بعض المدارك . . فالناس متفاوتون في قوة الفهم ودرجة العلم . . كما أن بعض المشتغلين بالحديث النبوي يصادفهم بعض الأحاديث التي تتعارض بعضها مع بعض أو مع بعض الآيات القرآنية – فنقلنا ما يحل الإشكال ، وعلى الله الاتكال » (١) .

وكثير من الموضوعات التي تناولها هؤلاء العلماء ليست من المشكلات كقضية القضاء والقدر – ونسبة أفعال العباد تارة إليهم وتارة إلى الله عز وجل . . (والمشكلة الأولى في الكتاب) نقل الحديث حولها من تفسير المنار بقلم الشيخ محمد عبده رحمه الله – كما نقل كلام الأستاذ أبو الوفاء محمد درويش في موضوعها .

ولذلك قلنا في مقدمة هذه الدراسة والتعقيبات على آراء العلماء فيما سموه : « مشكلات ، أو إشكالا ، أو اضطراباً ، أو تعارضاً في آيات القرآن » » : أنه لا يصح نسبة هذا الاشكال أو الإضطراب

---

١ – اكتفينا هنا بالتعقيب على المسائل القرآنية وحدها ٠ أما ما يتعلق بالحديث النبوي فتعقيبنا عليه في كتاب آخر ان شاء الله ٠

إلى القرآن نفسه . فلا يقال (مشكلات القرآن) أو (مشكل القرآن) وإنما ينسب ذلك إلى العقول ولأفهام القاصرة عن إدراك حقيقة المقاصد والمعاني فيما عبرت عنه آيات القرآن الكريم .

واعتراضنا هنا ينصب — قبل كل شيء — على عنوان هذا الكتاب . لأن معظم تعقيبات أو توضيحات العلماء لهذه الاشكالات المتوهمة في بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية — كانت قويمة وسليمة . ولكن جامع هذه المقالات سمّى كل قضيّة أو مسألة طرحت في الكتاب : (المشكلة الأولى ، المشكلة الثانية — إلى المشكلة الخامسة عشرة) وسمّى المعاني المشتركة لبعض كلمات القرآن : (إشكالات قرآنية) .

● ● ●

إشكال مزعوم في خلود الجنة والنار

ونكتفي بالتعقيب على بعض القضايا المطروحة في الكتاب . ونبدأ بما جاء في القرآن الكريم عن خلود الجنة وخلود النار — وما توهمه الباحثون في هذه القضية من إشكال في عبارات القرآن .

ولم يذكر جامع الكتاب اسم كاتب هذا البحث (من ص ١٣٩ إلى ص ١٤٨) وقد سماه (المشكلة الثانية عشرة — هل نار الآخرة إلى فناء ؟) . ومع ما أورده الكاتب من الآراء المختلفة حول خلود النار أو فنائها . . إلا أن اتجاه البحث يبدو قوياً نحو القول بفناء النار وبقاء الجنة .

يقول الكاتب : نصوص القرآن والسنة في هذا الموضوع متعددة متشعبة . وأقوال أئمة التفسير والحديث فيه مضطربة — ثم يذكر قوله عز وجل :

« وما هم بخارجين من النار »(١)« وما هم منها بمخرجين »(٢) « قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله » (٣)

ثم يضيف الكاتب أن ما جاء في القرآن الكريم من آيات تدل على خلود أهل النار في النار وأبدية عذابهم ، وأنه لا يفتر عنهم ، وأنهم لا يموتون فيها ، وأن عذابهم فيها مقيم ، وأنه غرام أي لازم لهم — كل ذلك لا دلالة فيه على بقاء النار وعدم فنائها ، ويطالب بدليل واحد على ذلك من القرآن ! أو من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ! !

ويزعم بلا إسناد — أن بعض الصحابة كعمر وأبي هريرة وغيرهما قالوا بفناء النار ، وبالتفريق بينها وبين الجنة .

كما يتوهم الكاتب : أن هناك فرقاً ظاهراً بين ما يقرره القرآن من بقاء نعيم الجنة ، وأنه لا نفاد له ولا انقطاع ، وأنه غير مجذوذ — وبين ما يقرره من خلود أهل النار فيها . وعدم خروجهم

---

١ — البقرة /١٦٧/ .
٢ — الحجر /٤٨/ .. ويلاحظ أن هذه الآية تخبر بعدم خروج عباد الله المتقين من الجنة كما يوضح هذا ما سبقها مباشرة من آيات .. وليست تخبر بعدم الخروج من النار كما ظن أو نقل أو أراد الكاتب (التحرير)
٣ — الأنعام /١٢٨/ .

منها وأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأنها مؤصدة عليهم ، وأن عذابها لازم لهم . وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنه مقيم عليهم ولا يفتّر عنهم .

ثم يذكر الآيات القرآنية :

« فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربُّك إنّ ربّك فعال لما يريد . وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربُّك عطاءً غير مجذوذ »(١)

ويزعم أن بين الموقفين فرقاً . . فإنه قال في أهل النار :

« إنّ ربّك فعّال لما يريد »

أي أنه سبحانه يريد أن يفعل فعلاً لم يخبرنا به – وقال في أهل الجنة :

« عطاءً غير مجذوذ »

أى أن هذا العطاء غير مقطوع عنهم أبداً – فالعذاب مؤقت معلق ، والنعيم ليس بمؤقت ولا معلق .

وقال بعد ذلك : إن الجنة من موجبات رحمة الله ورضاه ، والنار من غضبه وسخطه . ورحمته سبحانه تغلب غضبه وتسبقه كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لما

---

١ – سورة هود /١٠٦–١٠٨/ .

خلق الله الخلق كتب في كتاب عنده موضوع على العرش : (إنّ رحمتي تغلب غضبي) كما أن النار خلقت تخويفاً للمؤمنين وتطهيراً للخاطئين والمجرمين .

ويضيف فلسفةً جديدة : أن الكفر والتكذيب ليس أمراً ذاتياً يستحيل زواله . بل هو أمر عارض طاريء على الفطرة قابل للزوال . وقد أخبر سبحانه أنه فطر عباده على الحنيفية ، ولم يفطرهم على الكفر والتكذيب .

ثم يتساءل وأين للقائلين ببقاء النار الحجة على عدم زوال حالة الكفار واحتمال تبديل نشأتهم بنشأة أخرى بعد أن تأخذ النار منهم مأخذها وتحصل الحكمة المطلوبة من تعذيبهم لم يبق أمر أو غرض يقصد من بقائهم في النار ، أو بقاء النار لهم .

وزاد على ما سبق من أوهام في التفريق بين خلود الجنة وخلود النار : أن الرضا من صفات الله عز وجل الدائمة ، أما الغضب فليس من صفاته الذاتية . فإذا زال غضبه زالت عقوبته وتبدلت رحمته . ولذلك لا يسمّى الله تبارك وتعالى بالمعاقب أو المعذب ، وإنما سُمِّيَ بالغفور والرحيم .

ويورد قوله تعالى :

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها »(١)

---

١ ـ النساء /٩٣/ .

وقوله عز وجل :

« **ومن يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدين فيها** »(١)

كدليل على أن الخلود لا يعني التأبيد لأن العذاب في الآيتين منقطع بسبب التوحيد . فكذلك الوعيد العام لأهل النار – بزعمه – لا يمتنع انقطاعه بسبب من كتب على نفسه الرحمة وغلبت رحمته غضبه . .

● ● ●

ونبدأ بالتعقيب على صاحب نظرية « فناء النار دون الجنة » :

● **فنقول أولا** : ان القرآن واضح وصريح في تقرير (خلود) كل من الجنة والنار دون تفريق بينهما ، وما دام الكاتب مسلّماً بدوام الجنة وخلود أهلها فيها فسوف نكتفي بذكر الآيات التي تقرر دوام النار وخلود أهلها فيها .

يقول الله عز وجل :

١– « **إنّ عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاما** » .(٢)

٢– « **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى** » .(٣)

٣– « **إنّ المجرمين في عذاب جهنم خالـــدون . لا يُفَتّرُ عنهم وهم فيه مُبلِسون** »(٤) .

---

١ – الجـن /٢٣/ ويلاحظ أن تمام الآية كلمة « أبدا » (التحرير)
٢ – الفـرقان /٦٥ ، ٦٦/ .
٣ – النازعـات /٣٧–٣٩/ .
٤ – الزخـرف /٧٤ ، ٧٥/ .

٤ ـ « ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » (١)
٥ ـ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد . . » . (٢)
٦ ـ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » . (٣)
٧ ـ « مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً »(٤) .
٨ ـ « إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا »(٥) .
٩ ـ « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفـــر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيرا » (٦) .
١٠ـ « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربُّك قال إنكم ماكثون »(٧)
١١ـ « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور»(٨) .
١٢ـ « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا

---

١ ـ يونس /٥٢/ .
٢ ـ فصلت /٢٨/ .
٣ ـ التوبة /٦٨/ .
٤ ـ الاسراء /٩٧/ .
٥ ـ طه /٧٤/ .
٦ ـ النساء /١٦٨ ، ١٦٩/ .
٧ ـ الزخرف /٧٧/ .
٨ ـ فاطر /٣٦/ .

من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين »(١) .

١٣ـ « إنّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتّى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين »(٢) .

١٤ـ « كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار »(٣) .

١٥ـ « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم »(٤) .

١٦ـ « إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار » (٥)

١٧ـ « خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » (٦)

١٨ـ « يريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم » (٧) .

---

١ ـ الأعراف /٥٠/ .
٢ ـ الأعراف /٤٠/ .
٣ ـ البقرة /١٦٧/ .
٤ ـ المائدة /٣٧/ .
٥ ـ المائدة /٧٢/ .
٦ ـ البقرة /١٦٢/ .
٧ ـ أي حظا طيبا في الجنة والقول بفناء النار ودخول أهلها من الكفار الجنة يعارض ذلك .. سورة آل عمران /١٧٦/ .

١٩- « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب »(١) .

٢٠- « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »(٢) .

٢١- « ألا إنّ الظالمين في عذابٍ مقيم »(٣) .

ونقف هنا مكتفين بهذه الآيات البينات الصريحات بألفاظها ومعانيها في دوام النار كدوام الجنة بلا تفريق ، ونسأل القائلين بفناء النار بعد تطهير أهلها منها ألا يكفي وصف عذاب النار - كما جاء في الآيات السابقة - بالاستقرار والاقامة وأن أهل النار ماكثون فيه - وأنه عذاب الخلد - وأن جهنم دار الخلد - وأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون - ولا يُقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها - وأن ما يتمتع به أهل الجنة من ماء وطعام قد حرمه الله على الكافرين - وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط - وأنهم ليسوا بخارجين من النار - ولهم عذاب مقيم - وأن الله حرم الجنة على من أشرك به - وأنهم كلما نضجت جلودهم بُدلوا جلوداً غيرها تحقيقاً لدوام العذاب ! !

ماذا يريد هؤلاء الذين يزعمون فناء النار، ودخول أصحابها من الكفار الجنة بعد تطهيرهم . - أوضح وأفصح من هذه التأكيدات

---

١ - النساء /٥٦/ .

٢ - طه /١٢٧/ .

٣ - الشورى /٤٥/ .

ببقاء النار كبقاء الجنة ، وخلود أهلها من الكفار كخلود أهل الجنة من المؤمنين ؟

● ● ●

وهناك حجة أخرى للرد على هؤلاء المؤولين للآيات القرآنية المحكمة ، وهي أن تعبير القرآن – واحد عن أهل الجنة وأهل النار .

* يقول عز وجل عن هؤلاء :

« أصحاب الجنة »

وعن أولئك :

« أصحاب النار »

فالصحبة صفة كل فريق لما يصحبه في الآخرة :

« لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة »(١) .

● وقال :

« تلك عُقبى الذين اتقوا »(٢)

أي الجنة ثم قال :

« وعُقبى الكافرين النار »(٣)

---

١ – الحشر /٢٠/ .
٢ – الرعد /٣٥/ .
٣ – الرعد /٣٥/ .

فالتعبير عن المصير بلفظٍ واحد ، وهو يقتضي المساواة في الثبات والدوام والبقاء .

● وكذلك جاء تعبير القرآن بكلمة :

« **مأوى** » :

عن مصير الفريقين في قوله :

« **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى** » (١).

* وكما قال :

« **وعَدَ الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم** »(٢)

قال كذلك :

« **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار** »(٣)

وقال في الآيتين عن هؤلاء : :

« **خالدين فيها** »

وعن أولئك أيضاً :

« **خالدين فيها** »

---

١ ـ سورة النازعـات /٣٧ـ٤١/ .
٢ ـ التـوبة /٦٨/ .
٣ ـ التـوبة /٧٢/ .

فهما سواء وعداً وخلوداً وإن اختلفا مصيراً وعاقبةً ومستقراً .

● وكما قال :

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً »(١)

قال كذلك :

« وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا . . »(٢)

وقال عن هؤلاء :

« وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم »

وقال عن أولئك :

« يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » (٣)

وقال أيضاً عن أصحاب الجنة :

« خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه »(٤)

وعن أصحاب النار :

« خالدين فيها أبدا لا يجدون ولياً ولا نصيرا »(٥) .

إن تعبيرات القرآن : (أصحاب – وعقبى – ومأوى – ووعد – وخالدين فيها – وأبدا – وسيق – ومقيم) واحدة عن

---

١ – الزمر /٧٣/ .
٢ – الزمر /٧١/ .
٣ – سورة التوبة /٢١/ .
٤ – سورة البينة /٨/ .
٥ – الأحزاب /٦٥/ .

أهل الجنة وعن أهل النار على سواء – فما الذي يدفع أو يضطر إلى القول بدوام الجنة وفناء النار ؟ .

وكيف يفهم أو يفسر القائلون بذلك قول الله الصريح الفصيح **«إنّ الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء..»(٤)**

بل كيف يزعمون أن الله يغفر للمشركين حيث يكتفي بعذابهم غير الأبدي إذ أن (النار) في دعواهم فانية ، وأن أهلها من الكفار والمشركين والمنافقين سيخرجون منها بعد التكفير والتطهير إلى الجنة ؟

● ● ●

وهناك استدلالات واستنادات قوية على دوام النار كدوام الجنة دون تفريق أو استثناء .

(أولا) أن ما سبق أن ذكرناه من آيات عن أبدية العذاب ، وخلود الكفار في النار يفيد الجزم باستمرارها ودوامها .

(ثانياً) أن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أخبرت بخروج من في قلبه ذرة من إيمان دون الكفار ، كما أن أحاديث الشفاعة من أولها إلى آخرها صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ولو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص أهل الإيمان بالخروج بعد التطهير .

---

٤ – سورة النساء /١١٦ .

وهناك أحاديث نبوية أخرى تؤكد خلود الجنة وخلود النار — كقوله عليه الصلاة والسلام : (والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار) وقوله أيضاً : (والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون — إلى قوله : وانها والله لجنة أبداً أو ناراً أبداً) .

(ثالثاً) ان الآيات القرآنية صريحة في أن الله عز وجل لايسوي بين الأبرار والفجار في المحيا والممات ، وأنه لم يخلق خلقه عبثاً ، وأنه لا يتركهم سدى :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون »(١)

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون »(٢)

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون »(٣)

ومن غرائب فهم القائلين بفناء النار ، وعجائب زعمهم قولهم : إن الله أخبر في ثلاث آيات بما يدل على عدم أبديتها — الأولى قوله عز وجل :

«قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم »(٤) .

١ ـ المؤمنون /١١٥/ .
٢ ـ القلم : ن /٣٥ ، ٣٦/ .
٣ ـ الجاثية /٢١/ .
٤ ـ الأنعام /١٢٨/ .

والثانية :

« خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد »(١) .

والثالثة :

« لابثين فيها أحقابا(٢) »

ويضيفون قولهم إن الله سبحانه قال في أهل النار في ختام الآية الثانية هنا :

« إنّ ربك فعّال لما يريد »

بعد الاستثناء (إلا ما شاء ربك) . وقال في أهل الجنة :

« عطاءً غير مجذوذ »

بعد الاستثناء (إلا ما شاء ربك) وهذا فرق بين الموقفين – بزعمهم – حيث علمنا أن الله تعالى يريد أن يفعل فعلا لم يخبرنا به . في حين أنه قال في أهل الجنة :

« عطاء غير مجذوذ »

فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبداً ، فالعذاب مؤقت معلق والنعيم ليس بمؤقت ولا معلق !

● ● ●

---

١ – هـود /١٠٧/ .
٢ – النبـأ /٢٣/ .

وهذا فهم غريب لمعاني الآيات ، والتفريق بين المواقف القرآنية المتشابهة بل المتفقة والمتساوية . **وردنا عليهم** :

(أولا) ان قول القرآن عن أهل النار وأهل الجنة واحد المعنى وواحد المفهوم في تخليد كل منهما وفي تعليق التخليد بدوام السماوات والأرض ، وفي الاستثناء بمشيئة الله عز وجل . أما قوله عن أهل النار :

« إنَّ ربَّك فعَّال لما يريد »

فهو تأكيد لإنجاز وعيده لهم وإنفاذ إرادته فيهم . وليس فيه كما توهم هؤلاء الزاعمون إخبار بما يريد الله تبارك وتعالى فعله مستقبلا .

وهذا التأكيد الإلهي له شبيه ومثيل في آية من سورة الحج :

« إنَّ الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إنَّ الله يفعل ما يريد »(١)

والموقفان متقابلان ومتساويان تجاه أهل الجنة هنا وأهل النار هناك ، وهو تأكيد لإنجاز وعده ، وإنفاذ إرادته .

أما الاستثناء في الآيتين :

« إلاّ ما شاء ربُّك »

---

١ ـ سورة الحج /١٤/ .

فهو – كما أسلفنا في بحث لنا سابق (١) – لإثبات الإرادة الإلهية المطلقة التي لا يقيدها وعد ولا وعيد ، ولا تحكمها القوانين والنواميس الكونية التي هي من صنع الله وإرادته إبتداءً وأساساً .

وقد جاء هذا الاستثناء في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم – كقوله عز وجل :

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء »(٢)

مع ورود آيات أخرى عديدة تفيد الوعد بالمغفرة ، والوعيد بالعذاب – وقوله سبحانه :

« بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء »(٣)

مع ورود آيات أخرى كثيرة تفيد إستجابة الله لدعاء من يدعوه . وكشف الضر عمن يرجوه – وقوله :

« ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره »(٤)

مع أن البعث والنشور للموتى أمر محقق لا ريب فيه . ومثله :

« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير »(٥) .. الخ ..

فالاستثناء – إذن – لإثبات مطلق المشيئة الإلهية . أي أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولو قلنا بتأثير (الاستثناء) في

---

١ – يراجع كتابنا (مع المفسرين والكتاب) ص ٣٦ .
٢ – آل عمران /١٢٩/ .
٣ – الأنعام /٤١/ .
٤ – عبس /٢١ ، ٢٢/ .
٥ – الشورى /٢٩/ .

موقف أهل النار ، وانه دليل على عدم أبديتها . . لانسحب هذا الحكم على مثيله في موقف أهل الجنة . وقلنا انه دليل على عدم أبديتها أيضاً .

وهو فهم سقيم ، واستنباط باطل ، وزعم مردود .

إشكال مزعوم في الشرك والكفر

ومن غرائب فهمهم . وعجائب زعمهم : أن النار خلقت تخويفاً للمؤمنين ، وتطهيراً للخاطئين والمجرمين . . فإذا تطهرت نفوسهم في الدنيا بالتوبة النصوح والمصائب المكفرة لم تحتج إلى تطهير في الآخرة – وإن لم تتطهر في هذه الدار أدخلت النار ويكون مكثهم فيها إلى أن يزول ذلك الدرن والخبث ، ثم تخرج من النار – وسحبوا هذا الحكم على الكفار والمشركين وتساءلوا هل هذا الكفر والشرك أمر ذاتي لهم مستحيل الزوال ؟ أم هو عارض طاريء على فطرتهم قابل للزوال ؟ .

وأجابوا بأنه ليس هناك دليل على استحالة زواله . فالله قد أخبر بأنه فطر عباده على الحنيفية ، وأن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم ، وإذن–كما زعموا–لا شيء يمنع من أنهم ينشئون نشأة أخرى بعد التعذيب والتطهير ، فيعودون حنفاء كما كانوا .

وهو فهم – كما أسلفنا – غريب ، للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في هذه القضية . بل إنه يناقض صراحة الآيات التي قدمناها ، الواردة في التفريق بين عصاة الموحدين الذين

يدخلون النار للتكفير والتطهير المؤقت ، ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة . . وبين الكفار والمشركين والمنافقين الذين جاءت الآيات صريحة بتخليدهم في النار ، وأبدية النار من أجل عذابهم الدائم .. كما جاء أيضاً في قوله عز وجل :

« إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ».(١)

وجاء قوله سبحانه عن هؤلاء الكفار والمشركين :

« ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكاذبون »(٢)

وقوله :

« ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » (٣)

وقوله :

«ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً»(٤)

ومع وضوح الآيات القرآنية وصراحتها : أولاً — في دوام النار وتخليد الكفار والمشركين والمنافقين فيها . . وثانياً — في تمييز الله المسلمين على المجرمين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات على المفسدين في الأرض ، وعلى الذين اجترحوا السيئات ، . وثالثاً —

---

١ ــ سورة النساء /١١٦/ .
٢ ــ الانعام /٢٨/ .
٣ ــ الانفال /٢٣/ .
٤ ــ الاسراء /٧٢/ .

التيئيس من استجابة الكفار والمشركين والمنافقين لدعوة الله والإيمان به ، ومن عدم الانتفاع بالإيمان عند انتزاع الأرواح ، وفي الآخرة عند رؤية العذاب . .

نقول – مع وضوح هذه الحجج القواطع – من كتاب الله عز وجل – يتساءل هؤلاء الغافلون المكابرون عن دليل من القرآن يردُّ دعواهم ، ويبطل مزاعمهم ، ويدحض استدلالاتهم السقيمة وفهومهم العقيمة .

أما قولهم : إن الله وسعت رحمته كل شيء وأن رحمته سبقت غضبه ، وأنه عز وجل لا يسمى بالمعذب ولا بالمعاقب ، فهذا صحيح . . لكنه عز وجل عادل ويأمر بالعدل والإحسان ، وينصب الموازين بالقسط يوم القيامة للحكم بين خلقه المحسنين والمسيئين ، والمؤمنين والكافرين . كما أنه سمّى نفسه بالعزيز الجبار ، ووصف نفسه بأنه ذو انتقام وشديد العقاب .

● ● ●

أما قياس ما جاء في بعض آيات القرآن الكريم من تخليد العصاة لله ولرسوله من قوله عز وجل :

« ومن يعْصِ الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها »(١)

وتخليد القاتل عمداً في قوله تبارك وتعالى :

---

١ ـ الجـن /٢٣/ .

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها »(١)

على ما جاء في القرآن من أبدية عذاب الكفار والمشركين والمنافقين . . فقياس مع الفارق البعيد ، فالخلود في هذه الآيات وغيرها الواردة في عصاة الموحدين ومجرميهم يعني أنه طويل الأمد ولا يعني الأبد (٢) لما دلت عليه الآيات الأخرى من التمييز والتفريق بين الفريقين مما سبق أن ذكرناه آنفاً — ولا حاجة بنا إلى تكراره وإعادته .

ومن جهة أخرى يجد دارس القرآن الكريم . والمتأمل في فقه لغته وأسرار بلاغته : أنه اشتمل على كلمات وتعبيرات عديدة متحدة الحروف ، ولكنها مختلفة المقاصد ، وفقاً لمواردها من الجملة والمعنى المراد من الحكم أو التوجيه الذي نزلت الآية من أجله .

والأمثلة على ذلك كثيرة لا نحصيها هنا . وإنما نكتفي بذكر بعضها كالهدى — والإيمان — والكتاب — والأمة . . فهذه الكلمات وأمثالها تعدد ورودها في آيات القرآن واختلفت مقاصدها . . كقوله تعالى :

« إنَّك لا تَهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء »(٣)

---

١ — النساء /٩٣/ .

٢ — هناك طائفة من العلماء يرون خلود القاتل عمدا في النار كالكفار ونحن لا نرى رأيهم هذا .

٣ — القصص /٥٦/ .

وقوله :

« **وإنَّك لتهدي إلى صراط مستقيم** »(١)

فقد نفى عنه الهدى في الآية الأولى — وهو بمعنى إلقاء الهداية في القلوب والبصائر ، وأثبته في الآية الثانية ، وهو بمعنى الدلالة إلى طريق الخير والحق .

وكذلك جاء (الإيمان) في القرآن بمعنى التصديق بالقلب ، وجاء مرة أخرى بمعنى (الإسلام) وثالثةً بمعنى الدين كله اعتقاداً وتسليماً .

والخلود : كهذه الألفاظ القرآنية التي تشترك فيها معان متعددة مختلفة — فهو مرة يعني الأبدية حسب وروده في الآية وسياقها ولحاقها وموضوعها — وهو تارةً أخرى يعني الطول والامتداد فترةً من الزمن . . كما جاء في موقف عصاة المؤمنين ، والقاتل العامد .

إشكال مزعوم في كلمات القرآن

وهناك في ص ١٥٤ من الكتاب — فصل تحت عنوان : (إشكالات قرآنية) وهو الإطلاق أو التسمية التي لا نريدها وكتبنا هذه الدراسات المتعددة في نقد مفاهيم أصحاب تلك التسمية التي لا تصح في نظرنا ، ولا يجوز أن يقال أن في القرآن آية أو جملة أو قضية مشكلة !

---

١ ـ الشـورى /٥٢/ .

وهذه الاشكالات القرآنية ـ المزعومة ـ منسوبة إلى علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدي وهو عالم فاضل . وقد قرأت له بعض الكتب النافعة في تفسير القرآن وفي الإجابة على أسئلة المستفتين .

● والكلمات التي ذكرت تحت هذا العنوان كثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها مثل لفظة (أُمة) التي جاءت في القرآن بمعنى (إمام) في قوله عز وجل :

« **إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفا** »(١)

وجاءت بمعنى الطائفة :

« **وإنْ من أُمة إلاَّ خلا فيها نذير** »(٢)

وبمعنى مدة :

« **وادَّكر بعد أمة** »(٣)

وبمعنى الدين والملة :

« **إنَّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنَّا على آثارهم مقتدون** » (٤)

ومنها كلمة (لسان) التي جاءت بمعنى الجارحة المعروفة :

« **لا تحرِّك به لسانك** » (٥)

---

١ ـ النحل /١٢٠/ .
٢ ـ فاطر /٢٤/ .
٣ = يوسف /٤٥/ .
٥ ـ الزخرف /٢٣/ .
٤ ـ القيامة /١٦/ .

كما وردت بمعنى اللغة :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »(١)

وبمعنى الثناء الحسن :

« واجعل لي لسان صدق في الآخرين »(٢)

ــ **قلت :** ان هذه الكلمات وأمثالها في القرآن الكريم هي من الألفاظ ذات المعاني المشتركة ، وهي معروفة في علم فقه اللغة العربية ــ والعبرة في إدراك مفهومها بالقرائن المصاحبة لكل إطلاق في كل جملة .

ثم إن إطلاقاتها الأخرى ليست خارجة عن أصلها . .فاللسان مثلاً هو الجارحة المعروفة المخلوقة بنعمة الله وفضله ــ ليتكلم بها الإنسان . . والكلام هو لغة الإنسان أو لغة الأمة التي ينتمي إليها . وكذلك الحديث الحسن أو الثناء الجميل إنما يصدر من اللسان .

وكذلك « الأمة » أصل في كل هذه الإطلاقات المتعددة . . فلا يكون إمام بلا أمة أي جماعة أو طائفة ، ولا تكون جماعة أو طائفة ومعها رئيسها أو قائدها أو حاكمها إلا ولها دين أو ملة تتبعها سواء أكانت حقاً أم باطلاً ، وتوحيداً أم شركاً ، ولكل أمة أجل وعمر ومحدود ، ولذلك جاءت (الأمة) بمعنى المدة والفترة من الزمن .

---

١ ــ ابراهيم /٤/ .
٢ ــ الشعراء /٨٤/ .

ومثلها كلمات (الهدى – والإيمان والسلطان – والقضاء) ومشتقاتها في القرآن وفي اللغة العربية معاً – تطلق إطلاقات متعددة المعاني ، وليس في ذلك إشكال أو تعارض أو اضطراب – كما توهم هؤلاء الكاتبون أو الباحثون في هذه الشئون .

● ● ●

أما ما توهموه إشكالاً فيما أورده القرآن عن المجرمين أنهم مرة يسألون عن ذنوبهم ؟ ومرة أخرى لا يسألون ، أو أنهم تارة لا ينطقون وأخرى يجادلون ، وينكرون أنهم جاءتهم رسلهم بالبينات – فهذا وصف وبيان عن مواقف متعددة يوم القيامة . . فإذا كانوا معترفين بذنوبهم – أو فريق منهم – فهم لا يسألون أو أن الله لعلمه الواسع لا يسألهم في موقف دون موقف . وإذا كانوا مجادلين منكرين فإنه يسألهم ويرد عليهم ، ويستشهد عليهم برسلهم وقرنائهم في الدنيا أو بشركائهم ، أو ينطق أيديهم وأرجلهم فتشهد عليهم بما أنكروه – وهناك مواقف أخر يوم القيامة للضعفاء والمستكبرين . . أحد الفريقين يتهم الآخر بإضلاله وإغوائه ، والثاني يرد عليه بأنه إنما ضل وغوى باختياره وقناعته ورضاه .

ولا إشكال في الآيات ، ولا في المواقف ، ولا في الطوائف لتعددها واختلافها زماناً ومكاناً وإنساناً . . في ذلك اليوم العظيم .

إشكال مزعوم في كفارة اليمين

وفي صفحة ١٥٢ ـ أثيرت المشكلة الخامسة عشرة تحت عنوان (كفارة اليمين) وأورد المؤلف هذه الآية :

« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم »(١)

ثم سأل : كيف سوى بين إطعام عشرة مساكين وبين تحرير رقبة مع الفرق الشاسع بينهما ؟ .

ولم يجب على هذا السؤال الذي ساقه في صورة مشكلة من مشكلات القرآن ـ وإنما ذهب يتحدث عن حكمة الإسلام في مطالبته بتحرير الرقيق في عدد من تشريعاته (٢) .

وليس في الأمر مشكلة . . فشأن كفارة اليمين مثل كفارة الظهار ومثل كفارة القتل خطأ . ومثل ما خفف الله به عن الحاج المتمتع إذا لم يجد هدياً فإنه يصوم عشرة أيام ، ومثل الحاج المريض أو الذي برأسه جراح أو قمل فإنه يرتدي ملابسه أو يحلق رأسه ، على أن يقدم فدية من صيام أو صدقة أو نسك .

فقد شرعت هذه الكفارات أو الفدي على مراتب ودرجات

---

١ ـ سورة المائدة /٨٩/ ٠

٢ ـ يراجع كتابنا (مفتريات على الاسلام) ففيه دراسة وافية عن فضل الاسلام على الرقيق ٠

متفاوتة مناسبة لحالة كل مؤاخذ أو مخالف أو مضطر من المسلمين ، فالغني يكفر بتحرير رقبة ، والعاجز مالياً يتصدق بإطعام المساكين أو بالصيام :

« لا يكلِّف الله نفساً إلاّ وسعها »(١)

أو **« لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها »(٢)**

وهذا التفاوت في مراتب التشريع في مخالفات من رحمة الله ولطفه وتمييزه الحكيم بين أغنياء عباده وفقرائهم وبين أقويائهم وضعفائهم . وبين القادرين منهم والعاجزين .

● وليس في الأمر إشكال . ولا مشكلة . كما أنه ليست في الكفارة الواردة في الآية مساواة بين تحرير رقبة وإطعام المساكين . وإنما هي العدالة الإلهية في تقرير الجزاء المناسب . . للمؤاخذ بذنب أو العاجز عن أداء واجب :

« وتمَّت كلمة ربِّك صدقاً وعدلا »(٣)

إشكال مزعوم في الزكاة

وفي صفحة ١٥٣ ــ قال تحت عنوان (إشكالان في الزكاة) : ان الاسلام قد ذكر جميع الأنواع الّتي تجب فيها الزكاة ، ولم يذكر البيوت ــ فمثلاً رجل يملك أكثر من عشرة جنيهات ومضى عليها عام أوجب فيها الزكاة ، ورجل يملك عمارة قيمتها

---

١ ــ البقرة /٢٨٦/ .
٢ ــ الطلاق /٧/ .
٣ ــ الأنعام /١١٥/ .

آلاف الجنيهات يمر عليها عشرات السنين لا يوجب عليه فيها الزكاة . . فكيف ذلك ؟ .

ثم أجاب ببلاغة مصطنعة قائلا : نعم . . هذا عين الحكمة .. فالإسلام يحارب حبس الأموال في الصناديق والخزائن . لما في ذلك من تعطيلها عن وظيفتها ، وعدم انتفاع أحد بها ، فأوجب الزكاة لينتفع بها الفقراء . أما من بنى عمارة فقد انتفع بها الكثير .. فهذا بنّاء ، وهذا نجّار ، وهذا حدّاد . . الخ . . ولا يفوتك أيضاً ما يلزم هذه العمارة من وسائل الصيانة والترميم بين حين وحين . .

● **قلت** : ما شاء الله ! ! بلاغة وفصاحة عجيبتان في إثارة المشكلات ثم في حلها بهذا المنطق الساذج ! .

إن ما يقوله هذا المتعالم المجهول . عن انتفاع الحداد والنجّار والبنّاء ونفقات الصيانة . . في شأن العمارات السكنية التجارية — يسري على كافة رؤوس الأموال التي تعمل في شتى المجالات الاقتصادية ، فهي نافعة للعمال الذين يعملون بها ، والموظفين الذين يديرونها ، والعملاء الذين يشترون من منتجاتها أو مبيعاتها .. بما في ذلك الأغذية والأكسية والأدوية وكافة حاجات الناس وضروراتهم وكمالياتهم أيضاً .

فهل هذا (الانتفاع) المزعوم يعفي أصحابها ومالكيها من أداء حق الزكاة ؟ !

كلا – والعمارات السكنية التجارية تجب الزكاة في أجورها عند قبضها قياساً على الثمار والزروع بمقدار نصف العشر ٥٪ ذلك ان استثمار (العقار) أصبح سوقاً عاملةً ناجحة تفيض على أصحابها مئات الملايين من النقود . وقد أفتى العلماء المعاصرون بوجوب الزكاة في أجورها من فورها قياساً على الزروع والثمار ، دون انتظار حولان الحول عليها لأن أصحابها لا ينتظرون يوماً – فضلا عن شهر أو حول – بل يسارعون إلى اقتناء عقار جديد ، أو بناء عمارة جديدة لاستثمارها . . وبذلك تفوت الفرصة لأداء حق الزكاة فيها ، ويضيع بالتالي حق الفقراء والمساكين في أموال هؤلاء الأغنياء المستثمرين (١) .

إشكال مزعوم حول همّ يوسف

وفي ص ١٦٣ – أثيرت مشكلة ما قيل حول (همّ يوسف عليه السلام) في قوله تعالى :

« ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » (٢)

وكان حل الاشكال المزعوم بقلم الشيخ سيد حسن الشقرا .. فهو يرى أنه عليه السلام همّ بامرأة العزيز فراراً وتخلّصاً من جنون شهوتها عندما همّت هي به جذباً بثيابه ، وتهديداً له باجابة طلبها بالقوة والعنف . ومن ثم اندفعت وراءه تجري إلى الباب فلحقته ،

---

١ – يراجع كتابنا (محاضرات في الثقافة الاسلامية) فصل الاقتصاد الاسلامي .

٢ – سورة يوسف /٢٤/ .

ومزقت ثوبه من خلفه . . وفوجئا بوجود الملك عند الباب ..الخ..

● **قلت** : إنّ القول بأنه همّ بها هَرَباً وفراراً منها غير قوي.. لأن لفظ (بها) بعد الهمّ يدل على النزوع إلى عمل ما تجاهها قد لا يكون تخلُّصاً منها ــ ثم إن عبارة (هم به أو هم بها) جاءت في اللغة العربية بعيدة عن مقصد الشهوة الجنسية ، أو الرغبة في المرأة ونطقت بها السنة النبوية ــ في الصحاح ــ كثيراً بمعنى إرادة الضرب أو القتل أو الزجر .

فهناك قصة اليهودي الذي جاء يطالب النبي صلى الله عليه وسلم بدينه وقال له : إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطُلٌ . . فهمّ به عمر ــ أي ضرباً أو قتلاً لسوء أدبه في مخاطبة الرسول فمنعه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكذلك عندما كان بعض الأعراب يُغلِظون القول بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم كان بعض الحضور من الصحابة(يهمّون) بهم زجراً أو ضرباً فيمنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

وإذن فمعنى (وهمّ بها) أي همّ بها زجراً أو دفعاً أو ضرباً لأنها لاحقته تجري وراءه حتى جذبته من قميصه وقدّته من دبُر ــ كما جاء في القصة نفسها .

● ● ●

وبعد . . فنحمد الله عز وجل على ما وفقنا إليه من بيان وتدليل وإدراك بيّن في هذه القضية القرآنية التي زعم الزاعمون الواهمون أنها من مشكل في القرآن ، فذهبوا ينكرون الثابت . ويثبتون المنكر . ويفتعلون الحجة . ويتعسفون الدليل والتعليل — وآيات القرآن بين أيديهم واضحةٌ بيّنةٌ : ألفاظها ومعانيها ، وقرائنها ومبانيها . **ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.**

فهرست كتاب القرآن الكريم

كتـاب أحكمت آيـاته

الموضوع	الصفحة

صدر من هذه السلسلة

دار الأصفهاني للطباعة بجدة
رقم الترخيص ١٨ ص - ٥/٤/١٣٩٣هـ